حبو الوليد
فى
علم التوحيد

شرح الموقف الخامس فى الإلهيات

تأليف الدكتور

محمد حسينى موسى محمد الغزالى

٢٠١٠م

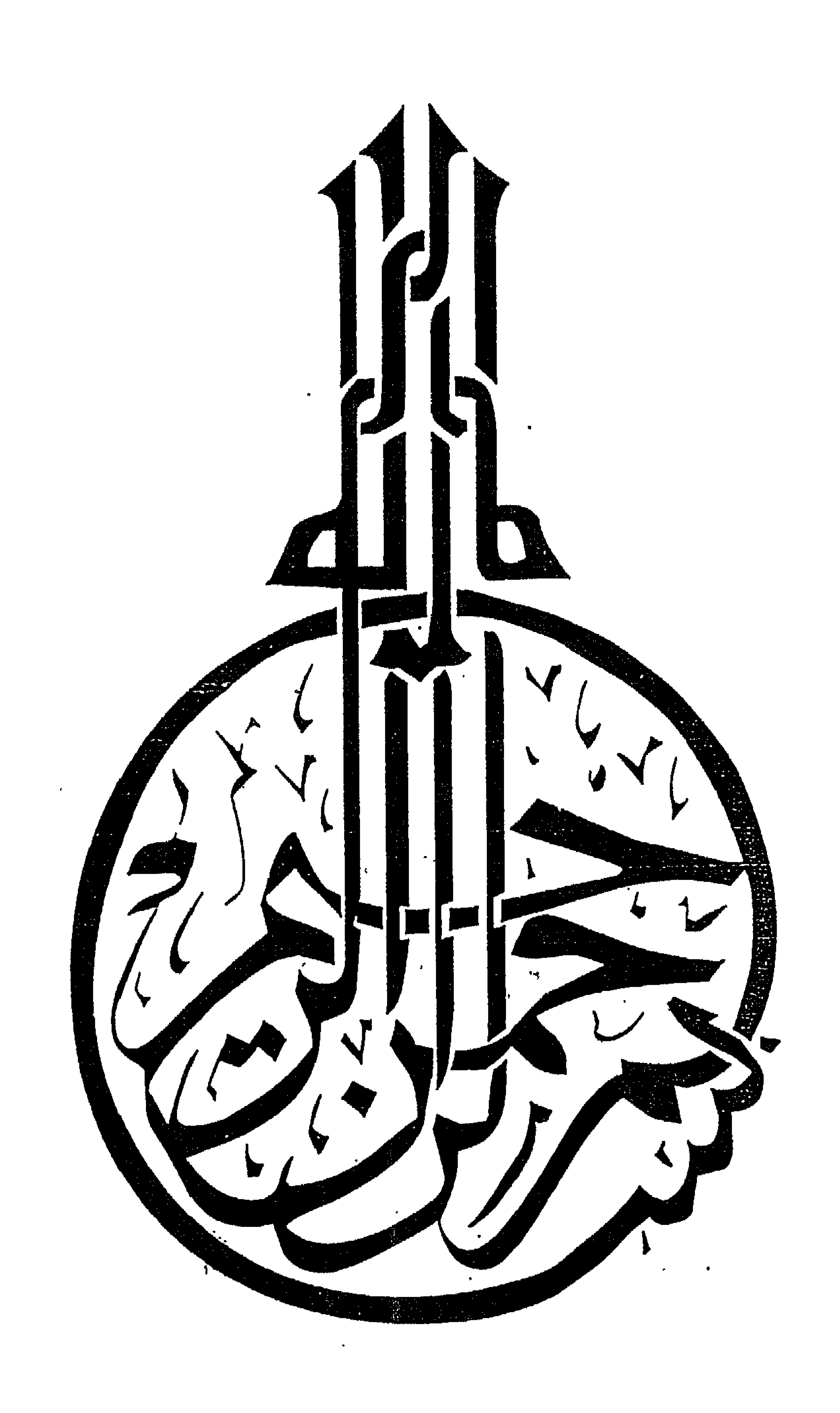
دار الأزهر للطباعة ، ت : ٣٣٢١٧٣٨ / ٤٥

حبو الوليد
فى
علم التوحيد

شرح الموقف الخامس فى الإلهيات

تأليف الدكتور
محمد حسينى موسى محمد الغزالى

٢٠١٠ م


بسم الله الرحمن الرحيم

أدلة وجود الله تعالى قديما وحديثا

كان العقل البشرى يصطنع فى الماضى أدلة نظرية يستشف منهـا اثبات وجود الله تعالى وعرفت فيما بعد بالأدلة العقلية وكانت هـذه الأدلة تنهض بجانب الدليل الفطرى ولم يكن الاهتمام بالدليل العملى والعملى الا فى حدود ضيقة جدا حتى فى باب اثبات العقيدة ككـل والاستدلال عليها كأجزاء .

بيد أن الاستدلال بالآيات الكونية كان قد اتخذ طريقه نحـو العقول ، وبات فى مرحلة نمو واخطر والا أنه استوى على سوقه أمـام أبى الحسن الأشعرى فالتقطه وصار يستخدمه ما أمكن له ، ومن قبـل الأشعرى ربما كان هذا الدليل الكونى العملى يمثل خاطرا يتأرجـح طيفه فى ذاكرة أصحابه .

على أن جمهرة المفسرين فى الماضى كانوا يقفون بالآيات القرآنيـة عند مرحلة الجلال والخشوع لما تدل به معانى اللغة وقليلا ماكانـوا يتجهون الى الآيات الكونية يستلهمونها اثبات وجود الله تعالى بشـكل عملى يرتفع الى مصاف الأدلة الأخرى واستغرق هذا ردحا من الزمـان دون أن تبدو علامات تغيير مقبولة .

بيد أن الامام الفخر الرازى ـ رحمه الله ـ قد هيأ طريق الاستدلال بالآيات الكونية على وجود الله تعالى وذلك بيـن فى كتابه " أسـرار التنزيل وأنوار التأويل "(١) مما جر على الرجل سيلا من السباب الـذى

---

(١) فضيلة الدكتور عبد الغنى الغريب طه راجح بتحقيقه ونال به درجة العالمية (الدكتوراه) فى العقيدة والفلسفة من أصول الدين فى القاهرة عام ١٩٩٥ م

صبه خصوصه بل كان من أسباب هجوم ضيقى الأفق عليه واتهامه — وهو من أهل السنة والجماعة — بأن كتبه تحمل الهوس والنجاسات حتى بات التحذير منه ومن كتبه أمرا ضروريا وما ذلك الا لأنها — على حد تعبيرهم — حشيت بكلام الفلاسفة وهاك النص الذى يقول فيه صاحبه : " ليحذر المبتدئ جهده أن يأخذ أصول دينه من الكتب التى حشيت بكلام الفلاسفة ، وأولع مؤلفها بنقل هواسهم ، وما هو كفر صراح من عقيدتهم التى ستروا نجاساتها بما ينبهم على كثير من اصطلاحاتهم وعباراتهم التى أكثرها أسماء بلا مسميات وذلك ككتب الامام الفخر فى علم الكلام ، وطوالع البيضاوى ، ومن حذا حذوهما فى ذلك ، وقل أن يفلح من أولع بصحبة كلام الفلاسفة ، أو يكون له نور ايمان فى قلبه أو لسانه ، وكيف يفلح من والى من حاد الله ورسوله ، وخرق حجاب الهيبة ونبذ الشريعة وراء ظهره " (١)

مع أن كتاب " أسرار التنزيل وأنوار التأويل " ليس كتاب تفسير حتى يظن أن القول لاينا له بل هو كتاب فى العقيدة ان لم يكن من أكثرها دقة واصابة للغرض فهو فى جانب الاستدلال بالآيات القرآنية الكونية من أوفى الكتب المؤلفة فى هذا الفن ، وكم تمنيت أن يحقق مرة أخرى كأجزاء مستقلة وموضوعات منفصلة ، وأن تقوم جولة دراسات تتعلق به وأن تتاح الفرصة لتبويب قضاياه وشرح مسائله والاشارة

---

(١) الشيخ محمد بن يوسف السنوسى - شرح أم البراهين ص ٧١ ومابعدها ففيها قدح فى الرازى بشكل واسع لا أرتضيه لأنه رمز من رموز أهل السنة والجماعة وليس هناك من سبب ظاهر لهذه الحملة التى ماتزال مستمرة من أيام ابن تيمية الى وقتنا الحاضر .

الى مواطن الاقتباس ففيه خير كثير ونفع عظيم .

على أن مسألة الاستدلال على وجود الله تعالى فى العصر الحديث قد اتخذت أنماطا علمية وأخرى معملية بجانب الأدلة الأخرى ذات الأنماط المختلفة وبعد أن كانت الفطرة ونصوص النقل المنزل مع الجدل العقلى هى الأدلة فقط ، فقد أتى العصر الحديث واتخذت أنماط مختلفة عقلية ومعملية وعملية من تلك التى تلفظها أرحام المعامل وتستقبلها من بطون التجارب دليلا قويا على اثبات وجود الله تعالى ، وصدق أن القرآن الكريم كلامه تعالى والتأكيد على أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم أنبيائه ورسله .

بل ان هذه الدلائل والحجج لم تعد خبىء محابسها وانما راحت تدوى فى صدور عبارات قليلة أو كثيرة تخرجها المطابع باللغات المختلفة مؤدية قاسما مشتركا هو التأكيد على اثبات وجود الله تعالى بكافة السبل حتى صارت هى السائدة الآن على غيرها من الأدلة وراحت تؤدى دورها باقتدار حتى فيما مضى ، وماتزال تؤديه بجوار الأدلة التي تعاملت مع العلم المعملى وراقبت تقدم التكنولوجى .

واتخذت هذه المؤلفات — ذات المناهج المختلفة — طريقتين فى اثبات وجود الله تعالى والتأكيد على هذا الوجود الالهى العظيم والطريقتان هما :

الطريقة الأولى : عرض أصحابها قضايا العلم مباشرة حتى يستدل بها على وجود الله تعالى وعمله فى الكون واحتياج الكل اليه ، ولأصحاب هذه الطريقة فى هذا المجال مؤلفات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال

لا الحصر مايلي :

١ — الله يتجلى فى عصر العلم ٠

٢ — الله والعلم الحديث ٠

٣ — الانسان لايقوم وحده ٠

٤ — العلم يدعو للايمان ٠

٥ — للكون اله ٠٠٠٠٠٠٠٠٠

وهذه الكتب المؤلفة انما تمثل قطرة فى بحر المؤلفات الكثيرة التى تذخر بها المكتبات الاسلامية فى أنحاء العالم ، ولطالب المزيد الرجوع اليها وغيرها ففيها الخير الكثير ٠

الطريقة الثانية : عرض أصحابها قضية وجود الله تعالى ، والرد على المنكرين وابطال شبههم والدفع بهم الى سؤال التجربة التى يحترمونها ويعلنون انطوائهم تحت لوائها ، اذاً أصحاب هذه الطريقة يقومون بواجبين يسيران فى اتجاه واحد وباضطراد :

الأول : اثبات وجود الله تعالى بلغة العلم العملى

الثانى : الرد على المنكرين وابطال ما يعتمدون عليه من دعوى العلم التجريبى ولهم مؤلفات عدة نذكر منها على سبيل الاشارة والمثال فقط ٠

١ — الاسلام يتحدى ٠

٢ — الدين فى مواجهة العلم ٠

٣ — الاسلام فى عصر العلم للأستاذ محمد فريد وجدى

٤ ـ الدين في عصر العلم .
٥ ـ الاسلام في عصر العلم للدكتور محمد أحمد الغمراوي .
٦ ـ الزام القرآن للماديين والمليين .
٧ ـ الأدلة المادية على وجود الله .
٨ ـ لماذا أنا مسلم ؟
٩ ـ كتاب دلائل التوحيد .

وهذه الكتب وأمثالها تتخذ أنماطا متعددة ومسالك كثيرة يستدل بها على وجود الله تعالى ، ولذلك سأقدم حصرا للأدلة على اثبات وجود الله تعالى على وجه الاجمال وهاك الأدلة مجملة :

١ ـ الدليل الفطري : ويسمى برهان الفطرة .
٢ ـ الدليل النقلي ويسمى دليل القرآن والسنة .
٣ ـ الدليل الكوني ويسمى دليل التأمل .
٤ ـ الدليل الالهامي ويسمى دليل البصيرة .
٥ ـ دليل العناية .
٦ ـ دليل الاختراع .
٧ ـ دليل افتقار الأسباب الى مسببه .
٨ ـ دليل الحركة .
٩ ـ دليل القهر والدوران .
١٠ ـ دليل التركيب .
١١ ـ الدليل العملي .
١٢ ـ الدليل التاريخي .

١٣ ـ الدليل الفيزيائـــــى .

١٤ ـ الدليل الجيولوجـــى .

١٥ ـ دليل تكاثر الســكان .

١٦ ـ دليل الأمراض المستحدثة .

١٧ ـ دليل الطب الوقائى والعلاجى .

١٨ ـ دليل التصوير والتخصيص فى المواد ذات الامتداد والأبعـاد الثلاثة .

١٩ ـ اضطرار العالم الى ممســك .

٢٠ ـ دليــل الامكـــان .

٢١ ـ دليل الحـــدوث .

٢٢ ـ دليل قياس الغائب على الشاهد .

٢٣ ـ دليل التغير والتحـول .

٢٤ ـ ارتباط الأفراد بارتباط الموضوع ضرورة .

٢٥ ـ الحياة الحيوانية والنباتية على وجه الكرة الأرضية .

٢٦ ـ دليل النظام الكونى وما فيه من الامكان والاتقان

٢٧ ـ آيات اللـــه فى الانســان .

٢٨ ـ الاعداد والتهيئة فى الموجودات .

٢٩ ـ ترقى الصناعات وبقاء نظام الكائنات .

٣٠ ـ عشــق الموجودات للكمـــال .

٣١ ـ استحالة كون العالم علة لنفســـه .

٣٢ ـ دليل الالزام .

٣٣ ـ دليل اعمار الكائنـــات .

٣٤ ـ تاريخ البشـر " الدليل الاجماعى للبشر " ٠
٣٥ ـ دليل النبوات وآياتها الباهـرة ٠
٣٦ ـ التركيب البيولوجى فى خلايا المخ ٠
٣٧ ـ التحاكم الى الانصـــاف ٠
٣٨ ـ أدلة فلاسفة الأخلاق الأقدمين ٠
٣٩ ـ بهجة العقل السليم ورغبته فى الخروج من المأزق ٠
٤٠ ـ الأدلة الوجدانيـــة ٠

هاك أدلة قد وقفت عليها عقول البشر قرون متطاولة ، وها أنا ذا قد أحصيتها لك لتكون بين يديك منارات هدى تصلح يوما ما لتكـون بعضها موضوعات لرسائل علميـة تخدمك فى حياتك العلمية وبعضهـا يمكنك الاستفادة منه فى حياتك العملية ليكون لك زخرا تنهل منـــه وقت ما تريد ، فاقبل منى وتقبل عذرى فأنا وأنت بين يدى رب العالمين أحكم الحاكمين ٠

المقدمة السادسة

(أدلة السلف الصالح)

(١) أدلة السلف الصالح :(١)(٢)

للسلف الصالح — رضى الله عنهم — على اثبات وجود الله تعالى أدلة ، وهذه الأدلة منها ما هو مشترك بين الحفاة والعراة وساكنى الخيام والقصور وغيرهم ، ومنها مايمكن فهمه من تقلب ظروف الحياة ، ومنها ماجاء مقتبسا من النقل المعصوم أو منقولا منه ، وكل هذه الأدلة يمكن النظر اليها بشئ من التفصيل ، على أنها أدلة السلف الصالح فى اثبات وجود البارى جل علاه .

---

(١) لم يذكر الامام الايجى السلف الصالح ولا أدلتهم ولكنى سأذكرهم لأن رأيهم يمثل الفطرة النقية ، والعقل السليم والنقل المعصوم ، والدليل فى اللغة هو : " المرشد وما به الارشاد ، وفى الاصطلاح : هو الذى يلزم من العلم به العلم بشئ آخر ، وحقيقة الدليل هو : ثبوت الأوسط للأصغر واندراج الأصغر تحت الأوسط " . التعريفات باب الدال ص ٩٣ .

(٢) اختلف فى تحديد مفهوم السلف الصالح على أنحاء شتى :
— النحو الأول : القائلون : " بأنهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على التعيين فردا فردا .
— النحو الثانى : الذين يرون أن السلف الصالح هم الذين لهم خلف . فكل فرقة لها خلق يكون ما قبلها سلف لها وهو اتجاه اللغة
— النحو الثالث : الذين يقولون بالتحديد الزمانى وهم مختلفون فى المدة بين الطول والقصر فهم : أ — الذين يرونها مدة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم — كمدة وليست كأفراد .
ب — الذين يرونها فى المائة الأولى .
جـ — الذين يرونها حتى المائة الثالثة .
د — الذين يرونها حتى المائة الخامسة .
— النحو الرابع : الذين يرون السلف الصالح هم المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتقديمها على غيرها فى الاستدلال ، والسلوك . =

....

الدليل الأول : الفطري (١)

هذا الدليل نظر اليه السلف الصالح باعتباره نداء داخليا يقوم على أن هذا الكون لابد له من خالق له من الجلال والمهابة ما يجعل الاقرار بوجوده والاعتقاد فيه أمرا فطريا ، يقول الشهرستاني " تعطيل العالم عن الصانع العالم القادر الحكيم ، لست أراها مقالة لأحد ، ولا أعرف عليه صاحب مقالة ، الا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية (٢) .

من ثمّ التزم السلف الصالح دليل الفطرة السليمة التى تقر بضرورة الحاجة الى هذا الخالق العظيم ، كما رأوا أن مسألة وجود الله لاتحتاج الى نظر واستدلال ، لأنها بدهية وفطرية وضرورية ، وقد صور الشهرستاني هذا الموقف لهم فقال : " فما عدوت هذه المسألة — اثبات وجود الله — من النظريات التى يقام عليها برهان ، فان الفطرة السليمة شهدت بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها على صانع حكيم ، عالم ، قدير " (٣) .

= وهذا الرأى الأخير هو أرجح الآراء من غيره ، لأن كل واحد منهم تتجه عليه اعتراضات لايمكن دفعها بسهولة ويسر .

(١) الدليل الفطرى : نسبة الى الفطرة التى يشترك فيها كل جنس بعينه وتحصل عندهم من غير عناء ، أو بذل مجهود متى كانت الفطر سليمة .

(٢) الامام الشهرستاني / نهاية الاقدام فى علم الكلام ص ١٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٥ .

....

على أن تاريخ الفكر البشرى يقرر أن مسألة وجود الله أمر مقــــرر بين طوائف البشر لم يخل عنها شعب ما ، بل ربما تعددت الآلهــة في بعض الشعوب كرمز لهذه القوة التي يعتقدون وجودها وينســـبون الخلق والايجاد اليها ، وتقرّبها نفوسهم وان ضلوا الطريق في الوصول الى معرفة وجود الله على وجه صحيح ، اذن السلف الصالح يثبتـــون وجود الله بأدلة منها الدليل الفطرى(١) •

وليس معنى هذا أن السلف الصالح عطلوا عقولهم أو أهملوهــــا اهمالا ، وانما المقصود أنهم أثبتوا وجود الله كما آمنوا ، فحيث كـان ايمانهم فطريا تُقرّبه الفطر ، وتؤمن به العقول ، فكذلك كان استدلالهم على وجود الله فطريا ، فتطابق الفطر مع صحة الاعتقاد وهو معنــــى فطرية الدليل ههنا •

الدليل الثاني : النقلـــى :

ذلك أن السلف الصالح في استدلالهم على وجود الله ما كانــــوا يسوقون عليها بعد الفطرة الا الدليل النقلي لكن مع امرار النقل علـــى ظاهره من غير التفات الى تشبيه يؤدى الى التجسيم أو ينتقل بصاحبـــه الى التعطيل ، وانما كانوا يقررون عقيدتهم الدينية طبقا لما تدل بـــه النصوص النقلية وهي كثيرة جدا منها :

---

(١) الفطرى مأخذه الفطرة ، وهي : " الجبلة المتهيأة لقبول الدين " التعريفات باب الفاء صـ ١٤٧ •

. . . .

ـ مظاهر التدبير الالهى لأحوال الناس الخاصة والعامة ٠

يبدو ذلك بوضوح فى أعمار الناس وآجالهم ، اذ مِنَ الناس من يتوفاه الله صغيرا ، ومنهم من يتوفاه فى سن الشباب ، ومنهم من يرد الى أرذل العمر ، ولا يعقل أن يكون هذا الفعل خبط عشواء ، ولا ضربة عمياء ، وانما يمكن أن يقال : أن هذا من فعل الواحد المختار ، يدل على ذلك قول الله تعالى : " وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ " (١) ٠

والملاحظ أن عَجُزَ الآية " إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ " يعنى عليم مقادير أعمارهم ، يميت الشاب النشيط ، ويبقى الهرم الفانى ، وفى ذلك تنبيه على أن تفاوت آجال الناس ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدّل أمزجتهم ، على قدر معلوم ، ولو كان مقتضى الطباع كما يقول الطبيعيون لم يبلغ التفاوت بينهم هذا المبلغ" (٢) ٠

على أنا نقول : أن هذا الدليل النقلى ، رغم أن مقدماته نقلية ، والنتيجة التى ينتهى اليها عقلية أو نقلية الا أن هذا الدليل كان المعول عليه بين علماء السلف وعلماء أهل السنة والجماعة ، أما لماذا ؟ ٠

---

(١) سورة النحل الآية رقم ٧٠

(٢) أ ٠ د / سيد أحمد رمضان المسير ـ الزام القرآن للماديين والمليين ص ٤٥ ، ٤٦ ط ١ سنة ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦م ٠ دار الطباعة المحمدية ٠

فلأنه دليل اتسع حتى شمل القرآن الكريم كله ، وفي نفس الوقت امتص كافة اعتراضات العقول وأقامها مستوية ، ثم نهض عليها فلم يبق لها الا الذكر غير المقبول ، حتى ان أصحاب هذه الاعتراضات ربما أهملهم القرآن الكريم واستبقى اعتراضاتهم والشبهات حتى متى جاء الناظر الى آيات الذكر الحكيم وجدها تترى عارضة الاجابات المستفيضة ، ومن ثمّ يمكن القول بأن السلف الصالح — رضوان الله عليهم — ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة ، وأهل الحديث الشريف كان الدليل النقلي الشرعي هو المعول عليه في اثبات وجود الله — تعالى — على وجه الخصوص ، واثبات باقي الصفات الالهية وما يستتبعها على وجه العموم.

من ثمّ صحّ القول : بأن السلف الصالح كانوا يقررون عقيدتهم : " الدينية من واقع النصوص الشرعية (١) وهو ما يعرف بالدليل النقلي .

على أن الدليل النقلي الذى هرع اليه السلف الصالح وعضوا عليه بالنواجز كان دليلا قويا في افادته ما تعرض له ، فمثلا : معرفة الله — تعالى — تقف العقول حيالها مؤمنة بحقيقة قائمة هي وجود الله ، لكن أوصاف هذا الموجود ، ومعرفته من حيث هو لاشك أن العقل يقف عندها يضرب كفا بكف ، وينتعل خفا فوق خف ، حتى أنه لايتمكن من تقديم اجابة كافية على حقيقة وجود الله — سبحانه وتعالى — وربما هذا

(١) د / حسن محرم الحويني / المنهج في اثبات الصانع بين السلفية والمتكلمين ص ٢٠ .

ما عناه الامام الغزالي حين قال : " لايعرف الله سبحانه وتعالى كنه معرفته الا الله تعالى " (١) .

وماد ام النقل المنزل هو الذى يخبر عن الله فحتما ستكون الأدلة المنتزعة من النقل نفسه وأهمها الدليل النقلي قادرة على بلوغ الغاية ، وتقديم معرفة صحيحة بالله سبحانه وتعالى ، فمن ذلك قول الله تعالى " وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ " (٢) .

الى هنا نكتفي بتفصيل هذا الدليل النقلي ذاكرين على سبيل الاجمال ما يمكن استفادته منه على وجه العموم طبقا لما هو مدون في كثير من الكتب ، من ذلك كتاب : الدين بحوث ممهدة (٣) ، وغيره من

---

(١) الامام الغزالي / الجام العوام عن علم الكلام ص ٩٢ تحقيق/ مصطفى العبد الله / منشورات دار الحكمة بيروت سنة ١٩٨٦م .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٣٨ .

(٣) هو كتاب الدكتور المرحوم / محمد عبد الله دراز — وقد استفاد كثيرا من منهج الامام ابن القيم في كتابه / مفتاح دار السعادتين وكذلك فعل الدكتور / سليمان دنيا في كتابه/ نحو عقيدة قرآنية ، وكذلك المرحوم الدكتور/ رؤوف شلبي في كتابه / الوحي ، كما اقام ذلك الدكتور/ محمد احمد الغمراوي في كتابه / الاسلام في عصر العلم .

. . . .

المؤلفات (١) التى عنيت بذكر هذا الدليل النقلى وتفصيلاته ، على النحو الذى مارسه السلف رضوان الله عليهم واستفاده بعدهم الخلف ممن نهجوا نهجهم .

الدليل الثالث : الكونى القرآنى :

وأعنى به الدليل المنبث فى مظاهر الكون المختلفة سواء فى الأنفس أو الآفاق أو الظواهر الكونية والتى يمكن التعرف عليها من خلال النقل المنزل ، وهذا الدليل فيه من الدقة مايجعل هَمّ علماء السلف فى العلا ، اذ أنهم لم يهملوا عقولهم ، ولم يتنازلوا عن قرآن ربهم ولم يغفلوا عن مظاهر الكون المختلفة ، فكأنهم أخذوا بالأمر من كل جانب .

حتى أنه ليقال : أن مرحلة الدليل الكونى القرآنى لدى السلف يمثل قفزة فكرية ، ورقيا علميا ، وتقوى دينية سبقت عصرهم الى ما بعد القرن العشرين مما حدا بمفكر كالأستاذ العقاد أن يعتبر الدليل الكونى القرآنى " أقوى البراهين اقناعا ، واحراها أن تبطل القول بقيام الكون على المادة العمياء دون غيرها " بل أنه ليقسم هذا الدليل الكونى القرآنى الى :

---

(١) ممن عنى بذكر هذا الدليل على لغة السلف الامام : الأشعرى فى كتاب / تجريد مقالات الأشعرى لابن فورك ، وكذلك الامام الهروى والامام / الطحاوى ، وكثيرون ممن نهجوا هذا المنهج اجمالا أو تفصيلا .

. . . .

أولا : برهان ظهور الحياة فى المادة : قال تعالى " يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ . . . . " وقوله تعالى : " وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ . . . . . . " .

ثانيا : برهان التناسل بين الأحياء لدوام بقاء الحياة : قال تعالى " جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا " وقوله تعالى " وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ " (١) .

وكم أخذ النقل المنزل بزمام العقل الصحيح جاذبا اياه من أعلى هامٍ له ، حتى ينظر فى الدليل الكونى القرآنى بدءا من خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وتوالى الأيام وكرّ الدهور ، من ذلك قوله تعالى : " قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى " (٢) .

وقوله تعالى : " وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ " الى غير ذلك من الآيات التى تحدثت عن الدليل الكونى القرآنى على وجه الاجمال والتفصيل مما يدفعنا الى فحص جزئيات هذا الدليل طبقا لما هو وارد فى النص المنزل، ومنبث فى الكون المتسع الفسيح وذلك على النحو التالى :

---

(١) الاستاذ / عباس محمود العقاد / الله كتاب فى نشأة العقيدة الالهية ص ٢٢٩ .

(٢) سورة ابراهيم الآية رقم ١٠ .

....

(١) في الآفـــاق : (١)

الآفاق تتعدد ، فهناك آفاق في الأرض ، وآفاق في الجبـال ، وآفاق في الأنهار وأخرى في البحار ، وغيرهم في فيافي الأرض ، وقمم المرتفعات ، بل وقنن الأشجار ، وكذلك الآفاق الجوية كالحـــرارة والرطوبة والصلابة والرخاوة ، بل والمطر والبرق والرعد ، وغيرها ممـا هو من تصنيفات الظواهر الجوية كسرعة الرياح وشدتها ، وسفى الرمال وقصف الرعود ، وأنين الزلازل وحنين الفيضانات .

بل ان هناك أجراما فلكية ، وأكوانا علوية ، وأجراما سماويـة ، وكل هذه تناولها الدليل الكوني القرآني باعتبار أنها المظهر الذى تبدو فيه الآفاق جلية ، وقد أحسن علماء الاسلام الحديث عن هـذه الآفاق (٢) ، اذ أناروا الطريق لمن بعدهم بأن الآفاق دليل قـــوى على اثبات وجود الله سبحانه وتعالى ونحن سنلتقط من الآفاق لقطاعلها تؤدى بعض ما نطمح اليه أو نطمع فيه .

---

(١) الآفاق جمع أفق والأفق هو قمة تجمع تحتها كثيرا مما هو في دائرة جنسها كالانسانية والحيوانية والنباتية التي تجمع أفراد الانسـان والحيوانية التي تجمع أفراد الحيوان ، والنباتية التي تجمع أفـــراد النباتات ... الخ .

(٢) ممن عنى بابراز هذا الدليل في المؤلفات الكلامية في العصـــــر الحاضر فضيلة المرحوم الشيخ محمود أبو دقيقة في كتابه القول السديد وان كان قد تناول جوانبه النظرية وأهتم بها ، فان الاستاذ / وحيـد الدين خان في كتابه / الاسلام يتحدى قد عالج المسألة ، وكذلـك كتاب / الاسلام في عصر العلم للمرحوم الدكتور / محمد أحمد الغمراوى وكذلك كتاب / الله يتجلى في عصر العلم لمجموعة من علماء الطبيعـة وقد ترجم الى اللغة العربية ويمكن الرجوع اليه حتى تعم الفائدة .

. . . .

أ ـ أفق الماء :

الناظر للماء على خريطة الأرض يراه مثلا لنسبة ٧١٪ من المساحة الكلية للعالم الأرضي ، بينما يمثل اليابس نسبة ٢٩٪ ، وهذه النسبة الكبيرة من الماء كلها مملحة ، وتحيط بالأرض من كل جانب حتى أنهما لتمثل الشريان التاجي بالنسبة لقلب الانسان ، وهذه المياه المالحة تتعامد الشمس عليها بصفة دائمة فتعمل معها عملية البخر ، اذ يرتفع الماء المبخر من الماء المالح ثم يصعد بخارا الى طبقات الجو في شكل كتل مكونة من ذرات مائية .

تتكاثف هذه الذرات المائية مكونة مجموعة من السحب يسوق الله الرياح اليها فتدفعها الى الأماكن الحارة فتفقد صلابتها ، وتسقط أمطارا عذبة يخرج عليها نبات الأرض ويتغذى منها كل كائن حي ، وهذا ما يمكن أن نفهمه من قول الله تعالى : " وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ " . (١)

وقوله تعالى : " وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا " (٢) .

---

(١) سورة الحجر الآيات ٢١ ، ٢٣

(٢) سورة النبأ الآيات : ١٤ ـ ١٦

والملاحظ أن القرآن الكريم أتى بذكر أمر كوني هو السحاب المعبأ بالماء ، من ثم نراه استخدم لفظ المعصرات وهي " السحائب الماطرة وهو مأخوذ من العصر لأن السحاب يعصر فيخرج منه الماء ، والعاصر لهذه السحب هو الريح ، ومعنى الثجاج : " السريع الاندفاع كما يندفع الدم من العروق في الذبيحة " (١) .

وهذا الدليل المائي من أجود الأدلة على اثبات وجود الله ، اذ أنه كشف عن كون الرياح لواقح وكشف عن كون السحاب عاصرا لكمية الماء قل لي بربك : هل يستطيع أحد أن يفعل ذلك غير الله ؟

لا شك أن هذا الدليل يأخذ بنا الى تدبر النقل القرآني ، ويصور أمر الماء على نحو يدفع الى مزيد تأمل . أنظر الى قول الله تعالى : " وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ " (٢) .

---

(١) د / سيد أحمد رمضان السيد — الزام القرآن للماديين والمليين ص ٢٨ .

(٢) سورة يس الآيات ٣٣ — ٣٦ .

على أن آفاق الماء الحلو ليس بأقل عجبا واستدلالا على وجـــود الله من الماء الملح، إذ لو أن الله جعل الماء كله عذبا لفسد بالكائنات المائية التي تعيش في الماء العذب وتنمو فيه وتتكاثر كالطحالب المائية، والضفادع والأسماك التي تفرز فضلات لو أنها ألقت بها في الماء العذب لأفسدته . بينما تلقيه في الماء الملح فلا تزيده إلا تهيئة ليتحول من ملح الى عذب.

كما أن الناظر الى الماء يمخر عباب الحياه فيحمل — مع ضعفه — الأثقال فيها هي السفن العملاقة . والحاويات الضخمة . والأساطيل والغواصات سواء التي تحمل المنافع للناس أو تنقل وسائل الدمـــار . فمع ثقلها وكثرة آلاتها تنطلق على بساط الماء كأنه وجه الأرض تقطعه في زمن قليل . ولعل هذا الدليل الكوني القرآني يمكن فهمه من القرآن الكريم في قوله تعالى : " وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(١)

وبالتالي فان أفق الماء وكيفية الاستدلال به على وجود الله من الأمور التي يراها العقل ماثلة في الكتابين المسطور والمنظور وأعني بهما القرآن الكريم — المسطور — والكون " الكتاب المنظور "

ب — أفق الأرض :

الأرض التي نحن عليها . على ظهرها نقطع المسافات . وعلى وجهها تنمو النباتات . وفي باطنها توجد القبور للمرفات . ومع هـــذا

---

(١) سورة الرحمن آية رقم ٢٤ .

فالأرض ليست أفقا واحدا ، وانما آفاق كل واحد منها يمثل أدلة قوية على وجود الله — تعالى — بل وعلى استمرار هذا الوجود الالهي ، من ذلك ما يلي :

(١) تنوع تربتها :

رغم أنها أرض ، الا أن قابلية قشرتها للانبات تختلف ، وكذلك قابليتها لاقامة أوجه الحياة عليها تختلف ، فمن قشرتها تربة سوداء طينية ، وأخرى صفراء، وثالثة حجرية، ورابعة رملية، وخامسة سبخ لاتصلح للانبات ، ولا لاقامة العمارات ، ولااستمرار أوجه الحياة عليها ، ومع هذا تراها قد حفظت في بطنها أنواعا أخرى من الثروات ، وماهي الا كأرحام تصلح بعضها لحمل البنين ، وأخرى لانجاب البنات وثالثة تعاند هذه وتلك فلاهي للبنات حاملة ولا للأولاد منجبة ، وانما هي صغيرة الحجم ، عاجزة عن الحمل ولله ملك السماوات والأرض .

هذه الأرض موات ، ومع هذا يحييها الله بالانبات ، قال الله تعالى : " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) .
على أن هذه الأرض ذات التربة المتنوعة تجد فيها من الأدلة على وجود الله الكثير مما يطول استقصاؤه ، ولكنا نقتبس من ذلك قوله تعالى " وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون " (٢) .

(١) سورة فصلت آية ٣٩ (٢) سورة الرعد آية ٤

....

والبادى فى الآية الكريمة أن تربة الأرض لها دخل فى عمليــة الانبات ، لكن ليس لها دخل فى نوعية النبات ، فهذه أرض جزئــت الى قطع متجاورة ليست بينها فواصل ، وفى نفس الوقت ماء ريها واحد لكن نباتها مختلف ، فهذه جنات نخيل ، وأخرى جنات أعناب وثالثة جنات زرع معروش وبفروش ، ومع هذا تجد الأشجار النامية والنباتــات المتسلقة ذات الأنواع المختلفة فى اللون اذ منها الفضى والأخضــر ومنها ذى الشوك الذى يصون نفسه ، ومنها النواعم التى تزين بهــا البيوت ، بل ومنها نباتات الظل والزينة ومع هذا منها مطعوم الانسان ومطعوم الحيوان ، ووقود النار ، ومصدر الطاقة ومايستخدم لحساؤه فى المواد الطبية لعلاج الانسان والحيوان وتجويد أرض النبات أليس هذا من الأدلة القوية على وجود الله

(٢) تنوع نباتاتها :

كنا فى العنصر السابق فى تنوع تربتها ، والآن نلجأ الى تنــوع نباتاتها ، ونستشهد بقول الله تعالى " وهو الذى أنشأ جنــات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمــان متشابه وغير متشابه كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ، ولاتسرفوا انه لايحب المسرفين " (١) .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤١ .

وتنوع نباتاتها هنا ليس من كونها معروشا وغير معروش ، أو نخلا وزرعا ، انما نعنى التنوع فى الثمار ، والتنوع فى الغاية المنوطة بـه ، وربما يؤيد هذا قول الله تعالى " ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم" (١)

وهكذا تتنوع ثمرات الأرض حتى لتشمل الكثير من النعم ، وتحوى الكثير من الأدلة على وجود الله — سبحانه وتعالى — بحيث تكون من الأدلة بمكان حتى تسوق العقل الى الاقرار بصدق النقل وصحة الاستدلال على وجود الله .

(٣) تنوع ثرواتها :

أجل : تتنوع ثروات الأرض بتنوع الغايات المنوطة بها ، وتتنوع كذلك بتنوع تربتها ، فالثروات اما أن تكون على وجه الأرض ، أو فى باطنها ، فما هو على ظاهرها الجمع الكبير ، والجم الغفير نذكر منه :

النباتات التى يتغذى عليها الانسان ، كالحب والعنب والزيتون والنخل ، والفاكهة ، ومما يتغذى عليه الحيوان القضب والأب والأشجار التى تصلح غذاء للانسان ولاتصلح لغيره ، والأخرى التى تصلح للحيوان ولاتصلح لغيره ، فلو أن كافة نباتاتها صلحت لغذاء الانسان وحده لما وجدت ثروة حيوانية ، اذ أن الانسان سيتغذى بكل هذه النباتات ،

(١) سورة عبس وتولى الآيات : ٢٦ الى ٣٢ .

....

بحيث لايبقى للحيوان شيئا ، ومن ثم . فان وجود هذه النباتات التى لاتصلح الا لغذاء الحيوان وحده جعلت الثروة الحيوانية تبقى وتستمر حتى تغطى حاجات الانسان من الدهن اللازم لنمو الكلوستيرول اللازم لسيولة الدم فى الأوردة والشعيرات الدموية التى لو انعدم فيها الكلوستيرول الحيوانى لحدث تجلط فى الدم وانسداد فى الأوعية الدموية مما يؤدى الى هلاك الانسان ، ومن المعروف أن استخدام الكلوستيرول والمشتقات التى تزيده فى الدم بكثافة تحوله الى شحوم يصعب على الجسم الاستفادة منها ويتحول صاحبها فيما بعد الى مريض بالقلب نظرا لكثافة هذه المادة الدهنية فى جسمه .

كما أن الثروة الحيوانية تمد الانسان بالبروتين والكالسيوم الموجودين فى جسم الحيوان عن طريق لحمه وعظمه ، ولولا هذه الثروة التى تنمو وتتغذى على ظهر الأرض لحدثت كوارث طبيعية للانسان وبيئية ، من ثمّ فإن تنوع نباتات الأرض كثروة أمر يؤكد الاستدلال على وجود الله ــ تعالى ــ وتوحيده .

فاذا أضيف الى لحم الحيوان ، وعظامه لبنه ، الذى يخرجه الله من بين فرث الحيوان ودمه سائغا للشاربين معوضا فقدانه مواد زلالية وبروتينية لو استمر فقدها فى الانسان لأصيب بالأنيميا الحادة التى ينشأ عنها أمراض كثيرة ، من أخطرها سرطان الدم والبلاجرا ،

. . . .

اذن فان هذه الثروات دليل على وجود الله من حيث تنوعهـا ، فاذا لاحظنا أن تنوع النبات وسائر ما يظهر على وجه الأرض من أخشاب يستخدم بعضها فى الحريق حيث يمتص ثانى أوكسيد الكربون الـذى يخرجه الانسان أثناء تنفسه أدركنا أن هذه النباتات من أعظم الأدلة على وجود الله ، ومثل هذا يطول استقصاؤه .

ومما هو من ثروات باطن الأرض ، ويغفل عنها كثير من النـاس قبور الموتى ، اذ لو أن باطن الأرض لم يقبل فى أحضانه الهادئـة استسلاما يقوم منه على زرع أجساد الموتى التى تتحلل فى باطنـه ، لظهرت كوارث لايمكن التنبؤ بالنتائج التى ستنتهى اليها ، اذ المشهور أن الأجساد بعد خروج الروح منها تبدأ عملية التحلل فى الوصول الـى خلاياها ، سواء الخلايا الأحادية (١) التركيب ، أو ثنائية التركيـب (٢)

---

(١) المعروف لدى علماء التشريح أن الانسان مكون من نوعين من الخلايا هما : الخلية الأحادية التركيب وهى خلية تنمو ولاتعوض ، كما أنهـا ثابتة لاتتكاثر وهى الخلية العصبية ، والخلية المخية ، والخليـة التناسلية ، وكونها أحادية التركيب يسبب قلقا لأنها لو دمرت لايمكن تعويضها وفى نفس الوقت يعطى منفعة ، اذ أنها لو انقسمت لحدث فيها نوع من الترهل فأصابت الانسان بالنسيان ، والمخ بعـدم القدرة على التركيز وقيادة الغدد التى تدار بواسطته كالغدة النخامية "والهيبوثالاموس" التى توجد أسفل المخ وتتحكم فى أربعة عشر غدة أخرى كالغدة الدرقية والجنسية .

(٢) وهى خلية تتكون من جزئين : وتشمل باقى أجزاء الجسم كالخليـة الجلدية ، فانها تنمو وتتكاثر باستمرار واذا حدث فيها اتـلاف لبعضها ، فان البعض الآخر يقوم بفضل الله بسرعة التعويض وأشـل

ومن ثمّ يحدث انهيار فى جهاز المناعة الذى كان يقاوم الأمراض ويقف سدا أمام تيار الميكروبات والجراثيم فتهجم هذه الأعداء الفاتكة على الجسم حتى تدخله مرحلة العفن بسهولة ، والمعروف أن العفن علة ومعلول للجراثيم وموطن للبكتريا وقد ثبت أن عددا من الجنود قتلوا فى الحرب العالمية الأولى ، ولم تتمكن قياداتهم من دفنهم لمدة لم تجاوز أسبوعا ، فاذا بأجسادهم تنتفخ وتصيبها العلل حتى تحولوا الى أجساد ناقلة للبكتريا والكوليرا فى آن واحد .

والمطالع للحديث القدسى يرى أن الحكمة من دفن الموتى داخل قبور فى باطن الأرض تمثل المحافظة على البيئة سليمة من سهم الأمراض المعدية وهذا من أفضل الثروات التى لم ينتبه اليها الناس كثيرا ، وهى فى ذات الوقت من الأدلة القوية على وجود الله تعالى وقد جاء الخبر فى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه عن

= دليل عليه ، أن عملية الجراحة لأى جزء من أجزاء البدن كالجلد أو اللحم أو العظم تلتئم ويحدث الانسجام طبقا لمدى ظروف الجسم الصحية وحجم ما أجرى له من جراحة ومهارة الطبيب ونظافة الجرح ، وسلامة البيئة المحيطة من تكاثر البيكتريا والجراثيم ، وقبل ذلك كله توفيق الله جل وعلا .
أما الغدة الأحادية فان الجراحات الى اليوم لم تقم الا بازالة بعضها كما يحدث فى عمليات المخ حين يقوم الطبيب باستئصال بعض الخلايا التى حدث فيها نوع من الضمور أو التلف أو اصيبت بعدوان خارجى فان عمله ينحصر فى مجرد ازالتها أو اصلاح ما بها من عطب واذا لم يقدر له بلوغ غايته فانه ينشأ عن هذا الفشل الموت أو شلل جزء من الأطراف التى كانت تخدم عن طريق خلايا المخ التى تلفت ، ومن ثم فان الخلايا الأحادية تختلف [illegible] الخاصة بها [illegible] وجود الله ـ تعالى .

عن ربه : " سلط الله ثلاثا على ثلاث ، سلط الصبر على المصيبة ولولاه لهلك الناس فزعا على صاحبيهم ، وسلط العتة على الأبدان ، ولولاها لاحتفظ الناس بأجساد موتاهم حتى ضاقت بها بيوتهم ، وسلط السوس على الحب ولولاه لأختزنه الملوك والأمراء كما يختزنون الذهب والفضة " (١) ٠

* ثروات باطن الأرض وتنوعها :

سلف الحديث عن بعض ثروات ظاهر الأرض ، وهانحن نتحدث عن بعض ثروات باطنها كأدلة يمكن الاهتداء بها الى الاستدلال على وجود الله سبحانه وتعالى ومن ثروات باطن الأرض ما يلي :

(١) قبور الموتى ٠

(٢) وجود الحديد والنحاس والمواد الأخرى التى من هذا القبيل وتمثل مادة صناعة أولية ٠

(٣) المواد السائلة كالغاز والبترول ومشتقاته ، والتمايز بين هذه الأنواع الثلاثة دليل قوى على وجود الله — تعالى — باعتباره من الأدلة الكونية المنبثة مظاهرها فى الكون كله ، والملاحظ أن هذه الأرضيات وما يتعلق بها انما تمثل جزءا من الكون العام الذى تحدث عنه النقل المعصوم باستفاضة ، وقد سردنا طرفا منه على أنه جهد العقل العاجز ٠

(١) الشيخ محمد المدنى / الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية باب السين ٠

جـ ــ أفق الجبــال :

يظن الناس أن الجبال مجرد أوتاد لا حركة فيها ولا حيــاة ، بل انها تمثل عبئا بالنسبة للأرض ، والحق عكس ذلك تماما ، اذ أن الجبال من الأدلة على الله بمكان ، أليست الجبال أوتادا ، قال الله تعالى : " أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا " (١) وفى نفــس الوقت تتحرك الجبال مع الأرض حركة مضطردة فى ظاهرها منعكســة فى فعلها ، وآية ذلك قول الله تعالى " وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَــا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ " (٢) .

اذن الجبال أوتادا تتحرك ، وثوابت تدور ، ومنافع لا تنقضــى ورغائب لا تنتهى ، فاذا علمنا أن الجبال تنمو على قممها مراتــــع المخلصين ، ويهجع اليها الأنبياء والمرسلون بحيث تكون علــــى أسرارهم أمينة ، وعلى أجسادهم حارسة مقيمة تمنع الأرض بهم عــــن الاضطراب ، فهم للأرض كالقلب للانسان ، ولئن كان الظن بأن الجبــال خرساء قد انتشر أمدا بعيدا ، فان هذا مما لا يمكن قبوله ، لأن الجبـال

(١) سورة النبأ الآيتان ٦ ، ٧

(٢) سورة النحل آية رقم ٨٨ .

تسبح لله – تعالى – قال تعالى "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا " (١) ، وقد تمكن نبى الله داوود من التقاط اشارات الجبال مسبحة لله – تعالى – حينما أمرها ربها في قوله – جل علاه – "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ " (٢) .

على أن ما يلفت الأفهام الى مسألة الجبال ، هو أن الناس بفعل التقدم العلمى المذهل قد استطاعوا تمزيق الجبال ، وتفتيت شرايينها ونقل رملها وحديدها وكافة ما يتعلق بها حتى أنه لم يعد بالامكان القول بأن الجبال ماتزال أوتادا .

والجواب :

أن هذه افتراضات لم تقم على قواعد مضطردة ، ثم ان الناس لم ينقلوا من الجبال الا قشرتها المفتتة ، وبالتالى فلايمكن أن يقال أنهم نقلوا الجبال ، وانما كل ما يمكن زعمه هو أنهم نقلوا وجه الجبل المفتت ، ولم ينقلوا عمقه الضارب في بطن الأرض ، وبالتالى فان أفق الجبال يعتبر من أقوى الأدلة على اثبات وجود الله تعالى .

(١) سورة الاسراء الآية رقم ٤٤
(٢) سورة سبأ الآية رقم ١٠

ولئن كنا قد تناولنا بعض الآفاق فان هذا ليس معناه الاستقصاء وانما المراد فتح الباب أمام الدارسين حتى يتطلعوا الى هـــذه الأمور آخذين فى اعتبارهم ما يمكن توظيفه منها فى العصر الحديـث ليكون علم توحيد قائما على النقل المنزل والتأمل فى مظاهر الكـــون العجيب على أساس أن هذه الآفاق لم تخلو من حكم مودعة فيهـــا ، لأنها " أفعال عجز العقلاء عن ادراك الحكم المودعة فيها " (١) .

وهناك أفق غير ما سلف يمكن اعتباره آفاقا كثيرة ، كآفاق الأجرام السماوية والظواهر الجوية ، وأحوال الأفلاك ، وهبوب الريـــاح ، وهطول الأمطار ، والرعد والبرق وما كان من هذا القبيل ، وقـــد استفاد من النقل المنزل ، ونال عناية السلف الصالح ، الذيـــن كانت " الحقائق الايمانية ، وخصائص الشريعة الاسلامية تمثل حجـــر الأساس فى تكوين عقلية المفكر المسلم " (٢) وتمكينه من استجلاء الأدلة القرآنية الكونية بجانب اقامتها على الوجه الأمثل شرعا .

الى هنا نكون قد انتهينا من عرض الدليل الكونى القرآنى لدى السلف الصالح فى جانب الآفاق .

---

(١) الامام الجرجانى / شرح المواقف فى علم الكلام / الموقـــف الخامس فى الالهيات ص ٦ تحقيق د / احمد كمال المهدى / نشر مكتبة الأزهر .

(٢) الدكتوره / فوقية حسين محمود / مدخل الى الفكر الاسلامى ص ١٤ مطبعة أخوان زريق ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) فى الأنفـــس :

تعرضنا لذكر الدليل الكونى القرآنى فى جانب الآفاق ، وها نحن ندلى فى جانبه الثانى يدلو وهو جانب الأنفس ، والملاحظة أن هناك فرقا بين الدليل النفسى (١) فى الاستدلال على وجود الله ودليل الأنفس الذى نحن بصدده .

حيث أن أفق الأنفس ههنا يقوم على وجود الأحوال الطارئة على النطفة وتقلبها من نطفة الى علقة ثم مضغة ، ثم عظما ولحما ودما ، كل هذه أحوال طارئة على الأنفس ولايمكن أن تكون من نفسها ، انما التأمل فيها والنظر الى النقل القرآنى يؤكد ان على أن هذه لاتستطيع ايجاد نفسها ، أو تقلبها فى مراحلها من غير فاعل حكيم ، من ثم ثبت أنها آيات فى الأنفس تقود الى الاقـــرار بضرورة وجود الله تعالى ، والتصديق بهذا الوجود الالهى .

ونكتفى فى هذه العجالة بالوقوف عند هذا الحد من أطروحات الدليل الكونى القرآنى عند السلف الصالح ومن أراد المزيد فلـــه مراجعة المصادر التى ذكرت أسفل الصفحات التى مرت ففيها مفتاح صغير لبحث المسألة وطرق الاستدلال والمعالجة .

(١) يمكن النظر فى كتابنا / قيمة الصراع بين الفلسفة الاسلامية وعلم الكلام / الباب الثالث / الدليل النفسى ص ١٦٤ .

﴿الفصل الأول﴾

((أدلة الماتريدية على اثبات وجود الله تعالى))

قال الامام الايجي وشارحه : " الموقف الخامس في الالهيات وفيه سبعة مراصد ، المرصد الأول في الذات وفيه مقاصد ثلاثة :
المقصد الأول في اثبات الصانع *

شرح الموقف الخامس في الالهيات

جعل الامام الايجي كتابه المواقف شاملا مسائل كثيرة وقد طبع بشرح الجرجاني فاستغرق مجلدات ثمانية جاءت من أولها حتى الجزء السادس في أمور عامة ، بينما جاء السابع منها خاصا بالموقف الخامس في الالهيات على حين كان المجلد الثامن في الموقف السادس وعنون له بالسمعيات وحيث جئنا الى الموقف الخامس " في الالهيات " فان الامام الايجي يقسمه الى مراصد سبعة ، كل مرصد منها يضم عددا من المقاصد ، بينما كل مقصد أشتمل على عدد من المسالك وربما أستوى كل مسلك عددا من المسائل والوجوه .

* في هذا المقصد ذكر الشيخ الايجي أن هنالك مسالك في اثبات وجود الله تعالى ، منها ما يخص المتكلمين على وجه العموم ، ومنها ما يخص الفلاسفة ، ومنها ما يشترك فيه فلاسفة الصوفية مع غيرهم وكلها تدور حول أدلة العقل في اثبات وجود الله مما يجعلنا نفرد بالحديث عنها سطورا تتعلق بما قبل المسلك الأول نذكر على الخصوص:

. . . .

قال الامام الايجى " المسلك الأول للمتكلمين " (١) :

يرى الامام الايجى رحمه الله " المسلك الأول من مسالك اثبات الصانع خاصا بالمتكلمين غير أنه لم يقل من من المتكلمين عناهم ، أهم متكلمة أهل السنة والجماعة — أشاعرة وماتريدية أم متكلمة الصوفية ، أو متكلمة المعتزلة وهل يقصد متكلمي المتقدمين ممن ذكرهم أم المتأخرين ؟

الحق أن عبارة الشيخ قد خلت من الاشارة لمتكلمي الماتريدية ، نعم قد يفهم ضمنا أنه أدرجهم ضمن متكلمي الأشاعرة ، ولكن هذا غير وارد لما سنعرضه فى حينه من ذكر أدلة الماتريدية على اثبات وجود الله على النحو الذى سيرد :

* أدلة الماتريدية على اثبات وجود الله :

يعتبر جمهور الماتريدية المثل الثانى لجماعة أهل السنة والجماعة ، وهم أصحاب أبى منصور الماتريدى ، أصحاب بلاد ما وراء النهر ، وهم فرقة اسلامية ، امتدت أصولها الى الامام الأعظم

---

(١) الامام أبو منصور الماتريدى / كتاب التوحيد ص ١٠ تحقيق دكتور / فتح الله خليف / طبعة دار الجامعات المصرية .

....

أبى حنيفة النعمان ، وتلاميذه من بعده ، وقد حاولت الفرقة الاستدلال على وجود الله ـ تعالى ـ وكانت لهم أدلة عديدة نجملها فيما يلى :

(١) الدليل الفطرى .
(٢) الدليل الكونى .
(٣) دليل حدوث الأعيان والأعراض .
(٤) دليل الامكان .

غير أننا سنلفت النظر الى أن الدليل الفطرى والقرآنى الكونى قد سبقت الاشارة اليهما ، من ثم فستعنى بدليلى الحدوث والامكان عند الماتريدية ، حيث قد نبه الشيخ الماتريدى الى أن وجود الله أصل يعرف به الدين ، وأصل يلجأ اليه الناس عند الحوائج ، من ثم فضرورة الاحتياج تدفع الى الايمان به ـ جل علاه ـ والتصديق فيه ، يقول الشيخ " لابد من معرفة ما فى الخلق من الحكمة ، اذ لايجوز فعل مثله ، ومافيه من الدلالة على من أنشأه ، أو على كونه بنفسه ، أو حَدَثٍ أوقِدَم " فهيا بنا لتناول الدليلين " الحدوث والامكان " ولنبدأ بالامكان ، لأنه فيما يبدو أقواهما عند الماتريدية .

دليل الامكان عند الماتريدية :

الناظر فى مؤلفات الماتريدية يراهم قد وقفوا لدليل الامكان مرجحين اياه على غيره ، يقول الشيخ البياضى "العالم من السموات

....

والأرض وغيرهما ممكن ، لأنه مركب متكثر ، وكل ممكن فله علة مؤثرة " (١)
والملاحظ أن "الشيخ البياض" ترجح عنده تغليب جانب الموكن في
ذاته باعتبار أن طبيعة الممكن هي ما يتساوى وجودها وعدمها ،
فاذا وجدت على ما هو البادى من خلق السموات والأرضين ، فلا
شك أن لها موجدا ، وهذا نزاعه يزول بوجود الأجرام " جرمي
السموات والأرض " على ما هي عليه الآن .

ثم انتقل الشيخ من ذات الممكن الى صفة من صفاته وهي
التركيب والكثرة ، وهما في حد ذاتهما اعراض ، اذن الشيخ أثبت
أولاً: امكانية الأجسام في ذواتها بدليل وجودها الآن ولاينكره
الا مكابر ، ثم انتقل الى اثبات الأعراض وأنها حادثة باعتبار أنهما
مركبة ومتكثرة، وطالما أن الذوات لاتستغني عن أعراضها ، وطالما
أن الأعراض لاتقوم بنفسها، اذن كل العالم له علة مؤثرة أوجدت
الذوات من العدم وألحقت الأعراض بالجواهر .

والشيخ لم يقف عند مجرد الاستدلال بالامكان ، وانما راح
يستشهد بالآيات القرآنية وينقل في نفس الأمر منها مايؤدى به الى
غرضه ، ويدعم أدلته سواء كان ذلك على طريقة الامام الماتريدى
أو على ما فهمه هو ، وبهذا نرى أن دليل الامكان عند الماتريدية
قد تكاملت أجزاؤه التي قام عليها وهي :-

(١) الامام البياضي / اشارات المرام من عبارات الامام ص ٨٢ .

....

---

(١) امكان الجواهر ، لأنها وجدت بعد عدم ، وأبرز دليل وجود الأجرام السماوية والأرضية .

(٢) حدوث الجواهر ، حيث أن هذه الجواهر ليست قديمة بدليل سبق العدم لها ، فهي حادثة .

(٣) امكان الأعراض ، حيث أحتيج الى تركيب الأعراض وتكثرها ، من ثمّ فلا تكون الا ممكنة يتساوى فيها الوجود والعدم .

(٤) حدوث الأعراض ، حيث أن الأعراض ملازمة للجواهر ، وقد ثبت حدوث الجواهر ، اذن الأعراض كذلك ، وهذا الدليل بأجزائه الأربعة يمثل نضجا فكريا لدى طائفة الماتريدية ، ومما استفاده منهم " الجرجاني " الأشعرى حينما هاجم دليل الحدوث وانتقل الى أن الرجوع الى دليل الامكان أقوى حيث يقول بعد أدلة المتكلمين : " ولا يذهب عليك أن ما ذكره تطويل ورجوع بالآخر الى اعتبار الامكان وحده والاستدلال به " (١) .

* دليل الحدوث عند الماتريدية :

يرى الماتريدية أن وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما ثبت بالدليل الفطرى ، والكونى ، ودليل الامكان ، فانه يثبت كذلك بدليل حدوث الأعيان والأعراض ، ومن ثمّ فقد جعلوا دليل الحدوث منقسما الى :

---

(١) السيد الشريف الجرجاني / شرح المواقف الموقف الخامس في الالهيات ص ٩ تحقيق د / احمد المهدى .

. . . .

أ — حدوث الأعيان .

ب — حدوث الأعراض .

أما حدوث الأعيان ، فيمكن التعرف عليه بالحواس ، والنقل ، والنظر ، التي هي عندهم أسباب علم الخلق ، يرى الشيخ أبو المعين النسفي أن " أسباب العلم للخلق ثلاثة : الحواس الخمسة والخبر الصادق ، والعقل " (١) وهو نفس ما ردده الشيخ أبو منصور — رحمه الله — من أن أدلة الحواس والنقل والنظر — العقل — يمكن أن تقودنا الى التصديق بحدوث الأعيان — ذوات الأشياء — الجواهر ، يقول الشيخ رحمه الله " الدليل على حدث الأعيان هو : شهادة الوجوه الثلاثة التي ذكرناها من سبل العلم بالأشياء " (٢) .

على أن اثبات حدوث الأعيان بالحواس شاهد ، فالجواهر التي لم تكن موجودة ، ثم وجدت كذوات الأشياء التي تتعرف عليها حيناً بعد حين ، وتكشف عنها قوانين العلم الفيزيائية ترشدنا الى التصديق

---

(١) الامام أبو المعين النسفي / كتاب التمهيد لقواعد التوحيد ص١١٩ تحقيق جبيب الله حسن احمد — دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

(٢) الامام أبو منصور الماتريدي / كتاب التوحيد ص ١١ .

بوجود ذوات لم تكن موجودة ثم أنشأها الله من عدم محض كالنيازك والشهب والأطباق الطائرة ، وما يجول بالتقنية الحديثة التى لم تكن فى اطار الحواس ، ثم تعرفت عليها الآن بعد أن وجدت ، من ثم فهى حادثة ، وقس كذلك الأعيان التى أثبتها النقل المنزل ، والعقل الصحيح ، مما يؤكد أنها جميعا لم تكن الا فى حيز العدم ، ثم طرأ عليها الحدوث ، فدل ذلك على أنها حادثة ، وأن لها محدثا هو الله رب العالمين ٠

والمعلوم أن الماتريدية ضيقوا بدليل حدوث الجواهر أولا ، الشقة التي كانت تبدو فى دليل الحدوث عند الأشاعرة ، كما أنهم أقاموا بنيانه المتصدع ، وقد كان جداره يريد أن ينقض حتى جاء حدوث الماتريدية فأقامه ويبدو أن لسان حال حدوث الأشاعرة يقول : لو شئت لاتخذت عليه أجرا ٠

* حدوث الأعراض :

وأما حدوث الأعراض فيقوم عند الماتريدية على مفهوم الحركة والسكون والاجتماع والافتراق ، وأن هذه الأمور الاحتكام فيها يقوم على الضرورة العقلية التى ترفض وجود حركة وسكون فى جسم واحد ، فى آن واحد ، واجتماع وافتراق لحال واحدة فى آن واحد ، وحيث أن الحركة والمكان والزمان من المتلازمات ، وقد ثبت حدوث الحركة كعرض ، فان السكون والاجتماع والافتراق التى هى عوارض غير الذوات

. . . .

" الأجسام " وهذه الغيرية ثابتة من حيث أن الجسم يخالف الحركة باعتبار أن الجسم ذات والحركة عرض .

يقول الامام الماتريدى " : " معلوم أن تكون الحركة والسكون والاجتماع والتفرق غير الجسم ، إذ قد يكون جسما متفرقا يجتمع ، ومتحركا يسكن ، فلو كان لنفسه يكون كذلك لم يكن ليحتمل مضادات الأحوال على بقاء الجسم بحالة ، وعلى هذا يخرج الفناء والبقاء ، اذ قد يوجد غير باق ولافان فى أوقات فيلزم أن يكون غيره ، وكذلك من أراد بقاء الشئ أو فناءه يقصد الى غير الوجه الذى يقصد بالآخر فثبت أنهما غيران يحلان " (١) .

ونحن بدورنا نرى أن دليل الحدوث عند الماتريدية سواء للأعيان أو الأعراض ينتهى الى اثبات وجود الله ، على ماهى عبارة الشيخ نفسه ، حيث يقول : " الدليل على أنّ للعالم محدثا أنه ثبت حدثه بما بينا ، وبما لايوجد شئ منه فى الشاهد يجتمع بنفسه ويفرق ، ثبت أن ذلك كان بغيره " وهذا الغير هو الذى أحدث العالم وهو الله رب العالمين ، وثبت أن دليل الحدوث والامكان وكذلك دليل الفطرة والدليل الكونى القرآنى، وماتخللهما انما يشغل جدة فى تناول القضايا العقدية تقريرا ودفاعا وهو من علامات الفكر الاسلامى لدى المتكلمين عامة وأهل السنة والجماعة ومنهم الماتريدية خاصة وكان الأولى للشيخ الايجى أن يذكر رأى الماتريدية نصا كما ذكر أدلة الأشاعرة وهو أبسط حقوق الماتريدية .

---

(١) كتاب التوحيد / للماتريدى ص ١٦

﴿ الفصل الثاني ﴾

((أدلة الأشاعرة على إثبات وجود الله))

المسلك الأول : للمتكلمين : *

---

* عبارة الشيخ الايجي فيها نوع من التسامح ، لأنها لم تتناول إلا رأى متكلمي الأشاعرة بشكل واسع ، أما الماتريدية فكانت مجرد اشارات، ولذا فقد تناولت رأى الماتريدية مستقلا عن رأى الأشاعرة ، كما أن العبارة لم تشمل المعتزلة وهم الفرقة التي سبقت أهل السنة والجماعة وكان لها في خدمة العقيدة الاسلامية والدفاع عنها مجهود وافر ، وأثر امتد فترة طويلة ، ولذلك سألجأ الى ذكر أدلة المعتزلة على سبيل الاستقلال أيضا .

كما أن عبارة الشيخ الايجي انصبت على جانب واحد من جوانب الأدلة عند متكلمي أهل السنة والجماعة ، أما كيف ؟ فالجواب : أن ماذكره الايجي والجرجاني قام على الدليل العقلي وشرحه ، بل وتبنى كل منهما الدفاع عنه واهمال ماعداه ، والدليل العقلي عندهم انحصر في تقسيم العالم المادى فقط إما إلى جواهر وإما إلى أعراض ، وبعيدا عن القول بأن الخلاف في مفهوم الجواهر مايزال قائما ، إلا أن حصر الدليل عندهم في الجواهر والأعراض ، والحدوث والامكان ربما يتوهم الناظر أن أمر الأدلة عند الأشاعرة كان هذا الدليل العقلي وليس هناك من دليل غيره .

غير أن هذا الفهم حتما يزول متى عرفنا أن الامام الأشعرى — رحمه الله — استخدم الدليل الكوني القرآني ، كما استخدم الدليل العقلي بل إنه كان في استخدامه الدليل العقلي يؤيده بالنقل مما يدفع الى

. . . .

الاعتقاد بأن الأشعرى نفسه كان ميله للدليل الكونى القرآنى أكثر من ميله للدليل العقلى الذى عوّل عليه الأشاعرة فيما بعد . وهذا يدفعنا الى ذكر مجمل لأدلة متكلمى الأشاعرة على وجود الله تعالى ، بادئين بالدليل الكونى القرآنى نظراً لتوارده فى عبارات الشيخ الأشعرى نفسه ، فما هى أدلة أهل السنة والجماعة ، والجواب أن :

لأهل السنة والجماعة دليلان أصليان هما :

(١) الدليل الكونى القرآنى .

(٢) الدليل العقلى .

ونظرا لأهمية الدليل الكونى القرآنى ، بجانب العقلى ، سألجأ إلى ذكر مجمل له ، من كتب الأشعرى نفسه ، ومن ثمّ سأقدمه على غيره من الأدلة . فما هو الدليل الكونى القرآنى .

أولا : الدليل الكونى القرآنى :

هو ماكانت مقدماته كلها أو بعضها مقتبسة من النقل المنزل ، أو مسترشدة به ، هذا فى جانبه القرآنى ، أما فى جانبه الكونى فقائم على التأمل فى نظام الكون والكائنات وسعيها الحثيث لغاية واحدة ، والأجرام العلوية والأرضية وما فيها من منافع ، وبالتالى فهذه ناحية كونية ، ومؤدى هذا الدليل هو :

أن الكائنات صغيرها وكبيرها تسير لغاية محددة ، وأن فى العالم نظاما عجيبا ، وترتيبا غريبا من [illegible] وحكمة

وجودها وفق نظام عام لا تخرج عنه ، مع أنه لا اختيار لها فيه كحركة الشمس والكواكب ، والأرض والجبال ، والانسان باعتباره نطفة ثم علقة ثم مضغة ، الى آخر ما فيه ، علما بأن نطفة الانسان لا تنتج حيوانا ولا العكس .

اذن هذا الدليل الكوني يقوم على " الاستدلال بذوات الأجسام من علوية وسفلية وصفاتها واختصاص بعضها بمزايا لم توجد فى البعض الآخر ، مع الاشتراك فى الجسمية (١) ، وهو اقناعى (٢) ، وقد أرشد إليه القرآن الكريم بل وأشار فى كثير من الآيات من ذلك قوله تعالى : " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " (٣) .

---

(١) الأستاذ الشيخ / محمود أبو دقيقة : القول السديد فى علم التوحيد جـ ١ ص ١٩٤ تحقيق وتعليق الاستاذ الدكتور / عوض الله حجازى ط مجمع البحوث الاسلامية .

(٢) يرى الاستاذ الدكتور / عوض الله حجازى أنه اقناعى وذلك " لأن مقدماته ليست يقينية ، بل تحتمل أكثر من معنى ، فسمى الدليل اقناعيا " لهذا الغرض هامش القول السديد جـ ١ ص ١٩٤ .

(٣) سورة البقرة الآية رقم ١٦٤ .

وقوله تعالى : " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ " (١) .

ومن ينظر فى مثل هذه الآية القرآنية الكريمة ، ثم يتابع النظام الكونى العجيب ، فلاشك أنه سوف يقف حائرا ، " ولا يسعه الا أن يعتقد أن لها موجدا حكيما مختارا فى تصرفه قديما ، منزها عن كل نقص " (٢) وكون هذا الدليل من السهولة بمكان فقد استفاد به السلف الصالح " (٣) رضوان الله عليهم أجمعين ، كما استرشد به أهل السنة والجماعة ، أشاعرة وماتريدية ، وماذلك إلا لأنه دليل قرآنى من حيث إنه كلام الله ، وكونى من حيث أنه يستدل فيه على الله بنظام الكون الذى خلقه الله .

بل إن الامام الأشعرى نفسه قد استدل به ، واستخدمه على نطاق واسع ، حتى فى اجابة الأسئلة التى كانت توجه له ، أو الاعتراضات التى كانت ترِدُ عليه من ذلك قوله :-

" إن سأل سائل فقال : ما الدليل على أن للخلق صانعا صنعه ومديرا دبره ؟ قيل له : الدليل على ذلك أن الانسان الذى هو

---

(١) سورة ال عمران الآيات ١٩٠ — ١٩١

(٢) الشيخ / محمود أبو دقيقة — القول السديد جـ١ صـ ١٩٩

(٣) سبقت الاشارة الى أدلة السلف الصالح فليرجع اليها من شاء .

....

في غاية الكمال والتمام كان نطفة ، ثم علقة ، ثم لحما ودما وعظما ، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال ، لأنا نراه في حال كماله وقوته ، وتمام عقله ، لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعا ولا بصرا ولا أن يخلق لنفسه جارحة .... فدل ما وصفناه على أنه ليس هو الذى ينقل نفسه في هذه الأحوال ، وأن له ناقلا نقله من حال الى حال ، ودبره على ما هو عليه " (١) .

وأى ناظر للدليل الكوني القرآني لدي الامام الأشعرى ، يراه ماثلا فيما سلف من عبارة ، ولولا خشية الاطالة لنقلت من نصوص الأشعرى ما يؤكد أن الدليل النقلي عنده كان أكثر حسما وقوة ، وأحب الى قلبه من أدلة فيها الجدل على أشده ، والغريب أن من ينسبون الى الأشعرية يغضون العين عن هذا الدليل رغم حلاوته وسرعته في الاقناع ، وسهولة تناوله وتعاطيه ، بل إن الأدلة العلمية اليوم تجد لها سندا عنده ، ومتكأ عليه .

من ثمّ . يمكن القول : بأن الشيخ الأشعرى : استدل بتطور خلقة الانسان وأحواله من نطفة الى علقة مقتبسا دليل من النقل المنزل فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، بحيث يمكن اعتبار دليله هذا من الأدلة القرآنية التي يمكن اعتبارها في ذات الوقت أدلة كونية أقيمت

---

(١) الامام أبو الحسن الأشعرى : اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ١٧ ، ١٨ تحقيق د / حمودة غرابة ط مطبعة مصر الأولى ١٩٥٥

. . . .

مقدماتها من القرآن الكريم ، فهى أدلة كونية قرآنية (١) معا .

فمن اقتباسه من القرآن الكريم قوله تعالى "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" (٢) .

ولاشك أن الخلق الآخر مباين "للخلق الأول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا ، وناطقا وكان أبكم ، وسميعا وكان أصم ، وبصيرا وكان أكمه ، وأودع ظاهره وباطنه بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب وغرائب لاتدرك بوصف الواصف ، ولاتبلغ بشرح الشارح" (٣) .

وهل خرج استدلال الأشعرى عن هذا السياق القرآنى الكريم فى شرح أمر كونى ياعلماء الأشعرية ، ومن ينسبون إليها حتى يهمل هذا الدليل إلى هذا الحد من الاهمال ، رغم قوته وصلابته وقبوله ووجاهته ؟!! ان هذا لأمر عجيب .

---

(١) استفاد الامام الرازى من هذا الدليل الكثير ، بل إن الناظر فى كتاب الرازى : أسرار التنزيل وأنوار التأويل يراه قد استخدمه بشكل واسع .

(٢) سورة المؤمنون الآيات ١٢ : ١٤ .

(٣) الدكتور / سيد أحمد رمضان المسير ـ إلزام القرآن للماديين والمليين ص ١٩ .

. . . .

ومن اقتباسه من السنة النبوية المطهرة قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق " ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم أربعين يوما علقة ، ثم أربعين يوما مضغة ، ثم ينفخ فيه الروح ، ثم يؤمر الملك بكتابة أربع كلمات ، رزقه وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد " (١) .

على أن الدارس المنصف لأفكار الامام أبي الحسن الأشعري في اثباته لوجود الله تعالى ، يمكنه القول بأن الرجل كان سلفيا في استدلاله على وجود الله ، وأنه لجأ الى الدليل النقلي كما كان السلف الصالح يلجأون اليه ، وان اتهام الامام ابن تيمية للأشعري بانتهاجه المنهج العقلي متجاهلا الدليل النقلي ، لايقوم متى بدا لنا ما في كتب الأشعري من استخدام للدليل النقلي مَتْنًا وفهما ، على ماسلف بيانه .

بل ان الأشعري — رحمه الله — في كثير من مسائل العقيدة تراه ملتزما النص لايستدل إلا به ، وربما جاءت معه دلالة اللغة ، وان رمت دليلا فهاك رأيه في القضاء والقدر — وهما من المسائل المهمة في العقيدة الاسلامية — لأنها تتعلق من ناحية بأفعال الله تعالى ، وتتعلق

---

(١) الحديث متفق عليه ، وهو حديث طويل وربما ذكرته بتمامه في موضع آخر من هذا الكتاب لكن فيما ذكر كفاية على مانحن بصدد بيانه .

. . . .

من ناحية أخرى بأفعال المخلوقين ، حيث ترى الامام الأشعرى قد نقل وجوه اللغة فى المسألة ، ثم نقل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تشرح معنى القضاء ومعنى القدر" (١) ولم يزد عليهما شيئا حتى انك تلمسه بكلتا يديك مفوضا الأمر لله ٠

أجل جاء من الأشاعرة بعده رجال وجدوا الحاجة ماسة الى تناول هذه المسائل بناحية عقلية فاستخدموا الملكات العقلية ربما بجوار النقل المنزل ، أو بعيدا عنه ، لكن لم يكن هذا التناول قد مارسه الأشعرى حتى ينسب اليه ، انما تجب نسبته إلى متأخرى الأشاعرة ومتقدميهم ، ومن ثم - يمكن اعتبار أبى الحسن الأشعرى ممن استدل بالنقل على أوسع صوره فى أمر وجود الله تعالى واثباته ، أو هو ـ على أقل تقدير ـ استدل بالدليل الكونى القرآنى على اثبات وجود الله تعالى ٠

الثانى : الدليل العقلى :

وهو عبارة عن " الاستدلال بالبراهين التى هى اليقينيات المنتجة لليقين وهى المعروفة فى المنطق بالبرهان ، الذى هو

---

(١) لمن أراد المزيد الرجوع الى كتابنا " الايمان بالغيب وأثره على الفكر الاسلامى ـ الباب الثانى ـ الفصل الخامس ٠

....

قول مؤلف من مقدمات يقينية لانتاج يقين ، وهذا هو المسمى بالدليل العقلى " (١) ·

ويقوم هذا الدليل عند المتكلمين على تقسيم العالم قسمين هما :

(١) الجواهـــــر ·

(٢) الأعـــــراض·

ثم يعودون الى اثبات حدوث الجواهر ، وحدوث الأعراض ، حتى إذا انتهى بهم المطاف من الحدوث وجدتهم يسارعون الى الامكان · حيث يقسم كل من الجواهر والأعراض الى : امكان الجواهر ، وامكان الأعراض وبالتالى فان الدليل العقلى يضم دليلين فى حناياه هما :

(١) دليل الحدوث :

أ - حدوث الجواهـــــر ·

ب - حدوث الأعـــــراض·

(٢) دليل الأمكـــــان :

أ - امكان الجواهـــــر·

ب - امكان الأعـــــراض·

ويحسن بنا أن نعرف كلا من الدليلين ، قبل السير فى عرض أجزائهما على وجه التفصيل ، فما تعريف كل منهما ؟

---

(١) الشيخ / محمود أبو دقيقة - القول السديد فى علم التوحيـــد ص ١٩٤ ·

....

أولا : دليل الحدوث :

عرّف بأنه " عبارة عن كون الوجود مسبوقا بالعدم " (١) ولكني لا أميل الى عموم هذا التعريف ، لأن الوجود والعدم في علم الله مقدران ، مخلوقان ثابتان ، هذا في علم الله ، وربما استدل بقول الله تعالى " ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ " (٢) اذن الوجود ليس مسبوقا بالعدم من هذه الناحية - تساوى الوجود والعدم في علم الله - لأن الأعدام مقدرة كالوجود تماما بتمام .

انما يقبل هذا التعريف بعمومه فيما يتعلق بالوجود الفعلي العيني في عالم الواقع ، فلا شك أنه لم يكن ، ثم كان ، أي كان معدوما بالنظر الى ذاته ، ثم أوجده الله تعالى على الشكل الماثل المشاهد ، ومالم نشاهد ، وعلى هذه الناحية يكون التعريف لدليل الحدوث على النحو السالف مقبولا .

ثانيا : دليل الامكـان :

عُرِّف دليل الامكان بأنه " عبارة عن كون الشيء في نفسه ، بحيث لا يمتنع وجوده ولا عدمه امتناعا واجبا ذاتيا " (٣) .

---

(١) الامام الفخر الرازى — الأربعين في أصول الدين ص ١٠١ تحقيق د / أحمد حجازى السقا — ط الكليات الأزهرية بالقاهرة .

(٢) سورة الملك الآية رقم ٢

(٣) الامام الفخر الرازى — الأربعين في أصول الدين جـ ١ ص ١٠١ .

ومؤدى هذا الدليل هو: أن الشيء الموصوف بأنه ممكن، لايوجد – اذا كان معدوما – الا بموجد مرجح وجوده على عدمه، ولايعدم – اذا كان موجودا – الا بمعدم مرجح عدمه على وجوده، لأن تعريف الممكن هو ماتساوى وجوده مع عدمه، وكونهما فى هذا النوع – التساوى – سواء فلابد من مغلب يجعل كفة الوجود مثلا تغلب كفة العدم، أو العكس. وسأضرب مثالا :

العالم العنصرى الذى هو موجود الآن على النحو البادى، والذى يقدر عمره فرضا بملايين السنين (١)، خلقه الله تعالى وجعله موجودا على ما هو عليه الآن، ومن ثم فهو موجود حتى يوم القيامة.

حتى اذا جاءت الساعة، وانهدم الكون الذى نعرفه، وتحول الى العدم، فلاشك أنه كان موجودا ثم انعدم، والعقلاء من المتدينين على أنه فى وجوده احتاج الى موجد هو الله تعالى، وفى عدمه محتاج الى مرجح لعدمه على وجوده هو الله تعالى. الذى أعدمه بعد وجوده

---

(١) نظرية تقدير عمر للكون غير مقبولة عندى. لأنها تقوم على مجرد الفرض والتخمين فى أمر غيبى، قطعه الله تعالى عليهم وكذبهم فيه فقال تعالى "مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا".

....

من ثم . فإن دليل الامكان منصب على المرجح للعدم على الوجود أو العكس في جانب الممكن ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وهو ظاهر القوة في دلالته على بيان الاحتياج بعكس الحدوث فان فيه من الضعف مالا يجدى معه القول في اثباته المطلوب مباشرة .

غير أن العالم العنصرى إما جواهر ، واما أعراض ، والفصل بين الأعراض والجواهر ، إنما هو فصل ذهني فقط ، لأن المكرور في كتب العلم ، والمقرر في الأفهام استحالة وجود الجواهر بدون أعراضها اللازمة لها ، ومن ثم فدليل الامكان يتم فيه الفصل الذهني بين الجواهر والأعراض فيقال :

أ — امكان الجواهر .

ب — امكان الأعراض .

ثم يستدل على امكان كل منهما منفصلا ، وحاجة كل منهما الى الآخر عند الاجتماع ، فنثبت الحاجة بينهما ، كما ثبتت حاجة كل منهما في ابراز وجوده على علة انتهت الى الواجب الوجود وهو الله سبحانه وتعالى .

" قد علمت أن العالم (١) ، أما جوهر (٢) ، واما عرض (٣) *
وقد يستدل على اثبات الصانع بكل واحد منهما " * .

---

(١) يقصد العالم العنصرى ، والا فهناك عوالم لايعلمها الا اللـه ولايمكن وصفها بأنها جواهر أو أعراض ، كالعرش والكرسـى ، والقلم ، وملك الرحمن ، وأم الكتاب ، وعلم الكتاب ، واللـوح المحفوظ ، وغيرها مما يجب التفويض فى حقيقتها الى أمر اللـه وعلمه .

(٢) الجواهر تنقسم الى :

أ — جواهر بسـيطة .
ب — جواهر مركبـة .
ج — جواهر ماديـة .
د — جواهر روحانيـة .

ويعرّف الجوهر عموما بأنه : مايشغل حيزا من الفراغ ، أو يحل فى غيره ، كالجواهر المركبة من أجزاء فإنها تشغل أحيازا من الفـراغ ، وكالروح والنفس فإنها جواهر لطيفة روحانية تحل فى غيرها .

ويعرف الجو هر أيضا بأنه : ما يقوم بنفسه ، سواء كان بسيطـا أو مركبا ، أو لطيفا أو روحانيا ، والملاحظ أن هذه التعريفـات تقريبية ، ويمكن التعامل معها على هذه الناحية .

(٣) الأعراض : جمع عرض ، ويعرف بأنه مايقوم بغيره ، كالألـوان والاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون فكلها أعراض تقوم بغيرها ولاتقوم بنفسها ، ومعنى عدم قيامها بنفسها ، أنها لاتستقل

....

بذاتها حتى يحكم عليها استقلالا أو منفردة ، وانما لابد لها من محل يقوم بها فتلحقه ، فمثلا الألوان : من بياض وسواد ، وحمرة واصفرار ، لايمكن تصور اللون منفصلا عن المادة التى تجعله مرئيا حتى يحكم عليه بأنه أسود أو أبيض أو خلافه ، ولايكون تصوره منفصلا إلا فى الذهن فقط ، وللأعراض أحكام كثيرة لسنا بصدد ذكرها ههنا " (١) .

* فى العبارة صيغة من صيغ التأكيد فى قوله : وقد يستدل على اثبات الصانع = لأنّ قد" هنا للتأكيد والتحقيق باعتبار أن الدليل العقلى أحد الأدلة القوية على اثبات وجود الله تعالى . ولو قال : يستدل من غير ذكر لفظ قد لكان المقصود من عبارته أن هذا الدليل الوارد المتمثل فى حدوث العالم هو الدليل الوحيد . من ثَمّ نبه الشيخ الى هذا المقصد فى عبارته السالفة .

---

(١) خص الامام الايجى الموقف الثالث من كتابه المواقف بالحديث عن الأعراض فشغل مقدمة وخمسة مراصد وهو من أطول مواقف الكتاب وقدمه الايجى فى الحديث عن الجواهر حيث جعل الموقف الرابع فى الجواهر ، فليرجع اليها من شاء ، حيث أن فيها فائدة كبيرة وبخاصة فى الكتاب ذى الشرح والحواشى والتقريرات .

اما بامكانه* أو بحدوثه * بناء على أن علة الحاجة عندهم * امـــا الحدوث وحده * أو الامكان مع الحدوث شرطا * أو شطرا ، فهـــذه وجوه أربعــة .

١-* قصد الشيخ بيان وجه الاستدلال بجواهر العالم أو أعراضه ، وأنـه يمكن الاستدلال بكل واحد منهما ـ الجواهر أو الأعراض ـ على اثبـات وجود الخالق البارى جل علاه ، إما بدليل الامكان ، وإما بدليـل الحدوث بحيث يكون الأمر قائما على :

أ ـ امكان الجواهــر .

ب ـ امكان الأعـــراض.

٢-* أ ـ حدوث الجواهــر .

ب ـ حدوث الأعـــراض.

٣-* يقصد عند المتكلمين الذين عناهم ، من أن العلة قائمة فى احتيـاج العالم ، إما إلى محدث يحدثه حيث يخرجه من العدم الى الوجود ، وإما إلى موجد يوجده ، فيرجح جانب الوجود فيه على جانب العدم * باعتبـار أن الجواهر وحدها يقع لها التغير من ثم فهى حادثة ، وكذلك الأعراض حيث إنها لاتبقى وانما تزول وبالتالى فهى متغيرة ، والتغير دليـل الحدوث . فثبت أن العالم مغير ، وكل متغير حادث ، وكل حادث لابـد له من محدث ، اذن العالم له محدث هو الله رب العالمين . هذا فـى علة الحدوث .

. . . .

٥٠* أما فى الامكان فالعلة أكثر وضوحا ، لأنه سبق القول بأن العالم ممكن من حيث إن الموجود ينقسم الى واجب وممكن ، والواجب هـو الله رب العالمين ، أما الممكن فهو العالم ، وحيث أن من أخص صفات الممكن هو عدم ترجح وجوده على عدمه من ذاته ، انما لابد له من مرجح خارج عن ذاته ، ولايكون أحد الممكنات ، والا رجع الأمر الى هذه الممكنات التى استند الممكن فى وجوده اليها .

من ثم . فقد بطل اسناد الايجاد الى أى من الممكنات، وثبت استناد جميعها الى موجد واحد أوجدها من العدم ، هو الله رب العالمين ، والملاحظ أن علة الحاجة فى دليل الامكان أقوى من بيانها فى علة الحدوث ، أما لماذا ؟ فلما يلى ؟ .

أولا : أن دليل الحدوث مبنى أساسا على تغير الأعراض ، فمتى ثبت التصديق بأن الأعراض متغيرة ، ومتى ثبت أنها حادثة ، فقد ثبت حدوث الجواهر التى لاتنفك عنها ، وبناء على هذا تكون الجواهر والأعراض حادثة .

ولكن هذه النتيجة غير لازمة إلا لمن سلّم بمقدماتها ، لأن هناك من يمنع تغير الأعراض ، وبالتالى لايقر بكونها حادثة ، ولاتلزمه نتائجها ، كما أن مسألة عدم انفكاك الجواهر عن أعراضها أمر قائم على مجرد الفرض ، كما أن انفصالهما أمر قائم على الفرض الذهنى . وهذا من نقاط الضعف فى الدليل .

....

ثانيا : أن الأعراض فروع ، والجواهر أصول ، لأن ما يقوم بنفسه أصل ، أما مايقوم بغيره ففرع ، اذ لولا الأصل ـ الجواهر ـ ماكان الفرع ـ الأعراض ـ ، وعلى فرض اثبات حدوث الأعراض ، فإن هذا الحكم لايلزم الجواهر ، لأنه ليس من المعقول اثبات حكم على الأصل لمجرد ثبوته على الفرع ، وهذه من نقاط الضعف فى الدليل أيضا .

ثالثا : مبنى هذا الدليل على تبدّل أحوال الأعراض ، وتبدل الأحوال غير مسلم فكيف يدعى ثبوت حكم لم ينل الخطأ أو حجية قبول لدى المتنازعين فيه .

رابعا : اعتبار الجواهر ذوات أمر مسلم ، لأنها تقوم بنفسها واعتبار الأعراض من ملازمات الجواهر يعنى صفات لها أمر محل تنازع . ومن ثم فلايثبت حكم فى أن الجواهر حادثة ، لمجرد أن صفاتها الملازمة لها حادثة .

لذلك هاجم الامام الفنارى دليل الحدوث لما سبق بيانه ، وحكى القول فيه ثم رده ، فقال : " انما اعتبر المتكلمون الحدوث بناء على أن دليل الصانع ، وهو العالم حادث ، أو على أن الصانع مختار عند هم فلا يستند اليه القديم " ولم يوافق الفنارى المتكلمين فى أن علة الحاجة هى الحدوث وحده ، أو الامكان مع الحدوث ، وانما ركز على أن المناسب لعلة الحاجة هو الامكان الذى يختبئ فيه أمر الممكن ، واحتياجه الى وجود مرجح لوجوده على عدمه ضرورة .

. . . .

يقول الشيخ الفناري عن علة الحاجة : " وعلتها عند قدماء المتكلمين هو الحدوث أو الامكان مع الحدوث ، وعند متأخريهم كالحكماء هو الامكان ، وهو الحق ، لأن الأصل فى الحاجة الى العلة هو الترجح بلا مرجح ، والممكن لما لم يقتض وجوده لذاته احتاج فى وجوده الى علة مرجحة ضرورة ، وان كان قديما كصفات البارى عند أهل السنة " (١).

وليس الفنارى وحده الذى أشار الى ضعف دليل الحدوث ، فى اثبات وجود الله سبحانه وتعالى ، بل ان الامام الشريف الجرجانى قد نوّه الى ذلك ، وقدم عبارة جيدة تؤدى الى أن دليل الامكان هو المعتبر فى الدلالة ههنا أما الحدوث فلا : قال الجرجانى : " ولا يذهب عليك أن ما ذكره تطويل ورجوع بالآخرة الى اعتبار الامكان وحده والاستدلال به " (٢) على اثبات وجود الله تعالى .

---

(١) الامام الفنارى ـ حاشية الفنارى ـ بشرح المواقف ج ٣ ص ٢ الهامش

(٢) شرح المواقف ص ٧ تحقيق د / احمد المهدى

الأول : الاستدلال بحدوث الجواهر • قيل هذه طريقة الخليل صلوات الرحمن وسلامه عليه حيث قال : لَا أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ" *

---

* الوجه الأول من الوجوه الأربعة التى ذكرها الايجى والجرجانى هو الاستدلال بحدوث الجواهر مطلقا ، سواء منها الجوهر الجسم ، وهو الذى يقبل الانقسام الى أجزائه ، أو الجوهر الفرد ، وهو الذى لايقبل الانقسام بوجه من الوجوه •

ثم ذكر الشيخ الجرجانى — على لغة التضعيف — أن هذا الوجه تمثل فى طريقة الخليل ابراهيم عليه السلام فى قوله تعالى : " فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ " (١) •

ولكن يبدو أن خليل الرحمن لم يكن يقصد الاستدلال بحدوث الجواهر ، لأنه نبى فلا طريق له نحو الدليل العقلى الا فى المحاجّة فقط ، وطريق المحاجة ههنا بيّن فى أنه صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم كان يريد توجيه قومه الى مسألة نفع الأصنام حتى تعبد، أو عدم نفعهما، وذلك مما يمكن فهمه من سياق الآيات القرآنية سالفة الذكر وغيرها من الآيات التى تحدثت عن موقف خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام وقومه •

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٧٦ — ٧٩ •

. . . .

حتى لكأنه يريد أن يقول لهم : " هذا حال الشمس والقمر والكواكب ، وفيهن شيء من النفع ظاهر ، فكيف حال الصنم من شجر أو مدر ، أو معدن ، أو طعام ؟ (١) ومع هذا فإن الفطرة السليمة والعقل اللماح يدرك أن مافيه النفع أولى بالحب ومافيه ضر أولى بالبغض . من ثمّ فلا يمكن اعتبار موقف خليل الرحمن ترجحه للدليل الذى ذكره الايجى والجرجانى ، كما تعتبر صورة وقف بها ابراهيم بين قومه ، لما سلف بيانه .

كما أن الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، لم يكن يعرف هذه الألفاظ والمصطلحات ، كلفظ الاستدلال ولفظ الحدوث ولفظ الجواهر ، أو الأعراض ، لأن هذه المصطلحات لم تكن قد دخلت الى ثقافة العرب ، ولم تكن قد نزلت الى دائرة استخدامها عندهم ، وبالتالى فالاستدلال لسيدنا ابراهيم قائم على اثبات المنفعة التى تأتى وتزول ، ولايستحق صاحبها أن يعبد ، لأنها منفعة وقتية ، بدليل أنها لاتبقى فترة طويلة ، انما تستغرق وقتا قصيرا ، ثم تزول ، فاذا قورنت بما لا منفعة فيه أصلا كالأصنام والأوثان ، فان صاحب العقل يقرر أنه مادام لم يعبد ما فيه منفعة قليلة ، فما ليس فيه منفعة أولى بهجره .

---

(١) الدكتور / محمد محمود حجازى ـ التفسير الواضح جـ ٩ صـ ٢٣ ط ١٠ سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م دار التفسير للطبع والنشر بالقاهرة .

وهو أن العالم الجوهرى : أى المتحيز بالذات حادث ، كما مر ،
وكل حادث فله محدث ، كما تشهد به بديهة العقل ، فان من رأى
بناء رفيعا حادثا ، جزم بأن له بانيا . *

---

* قرر الشيخان ـ الايجى والجرجانى ـ أن العالم الجوهرى حادث
لكن ماوجه حدوثه ؟ الجواب : أنه التغير ، لأن هذا العالم
الجوهرى مركب من أجزاء ، وبالتالى فالعالم محتاج الى أجزائه ،
وأجزاؤه محتاجة لمن يركبها ، ومن ثم فقد حدث تغير ، وكل متغير
حادث ، وظنا أن هذه المقدمة مسلمة ، ثم قررا المقدمة الثانية وهى
وكل حادث فله محدث،كما تشهد به بديهة العقل ، وليس الأمر كذلك
فى كل أحواله ، لأن هناك بديهيات لايجادل فيها عاقل ، وأمور
تشبه البديهيات وليست منها .

لذلك لجأ الشيخ الجرجانى الى الشرح فقال : فان من رأى بناء
رفيعا حادثا ، جزم بأن له بانيا " ولو كانت هذه المقدمة بديهية لما
لجأ الجرجانى نفسه الى الاستدلال عليها ، اذن هى مقدمة
استدلالية ، وليست بديهية كما ادعى والفرق ظاهر .

لأن القضايا البدهية تدرك من غير نظر وكسب واستدلال ، ككون
الكل أكبر من أى جزء من أجزائه مثلا ، أما كون العالم حادث فليست
الا نظرية ، كما أن المقدمة الثانية وهى " كل حادث فله محدث " يمكن
اعتبارها بدهية متى سلم بموضوعها وصدقه مع محمولها وكل حادث ، لكن
عند من لم يسلم بها ، فالأمر يحتاج لاقامة دليل له على لفظ الحادث،

. . . .

ومعنى الحادث ، وتفهيمه علاقة لفظ حادث بدلالته ، وذلك أمــــر يحتاج الى نظر واستدلال عليه .

وقد رجح الامام الرازى القول بأن هذه المقدمة " وكل حــادث فله محدث — بديهية وفطرية حيث قال : " ان العلم بها مركوز فـــى فطرة طبع الصبيان ، فانك اذا لطمت وجه الصبى من حيث لايـــراك، وقلت له : حصلت هذه اللطمة من غير فاعل البتة ، لايصدقك ، بل فى فطرة البهائم ، فان الحمار اذا أحس بصوت الخشبة فزع ، لأنه تقـــرر فى فطرته أن حصول صوت الخشبة بدون الخشبة محال (١) .

وفى الاتجاه المعاصر مدارس ترى أن هذا ليس فطريا ، فى ظـــل التقدم العلمى الهائل ، والتوقعات التى يتميز بها هذا العصر أمـــا الحيوان وصوت الخشبة فذلك راجع لمسألة الارتباط الشرطى كما هـــو كما هو تجربة بالخلــوف ، ولذلك مالوا الى أنها ليست بدهية وان كانت فطرية ، وان كنت أميل الى رأى الامام الفخر الرازى على ما ذكر الشيخ الأمير .

لكن أى وجه للدلالة يمكن الأخذ به حتى يصير العالم دا..ـا ، دالا على ضرورة وجود محدث له ، وهو الله سبحانه وتعالى ؟

---

(١) الشيخ محمد الأمير — حاشية محمد الأمير على شرح عبد السلام على جوهرة التوحيد ص ٦٠ .

الجواب : أن الامام الباجوري أحد محققي الأشاعرة تحدث عن وجه الدلالة (١) الذي به يستدل على ضرورة اثبات وجود الله تعالى وبيّن أنه أحد وجوه أربعة هي :

(١) الامكان : كأن يقول المجيب لسائله عن وجه الدلالة : " هذه المخلوقات ممكنة ، وكل ممكن لابد له من موجد ، هذا إن اختار أن جهة الدلالة الامكان .

(٢) الوجود بعد عدم : لأن هذه " المخلوقات موجودة بعد عدم ، وكل موجود بعد عدم لابد له من موجد " (٢) .

(٣) الامكان على أن الوجود بعد عدم شرطه .

(٤) الامكان على أن الوجود بعد عدم شطره .

ومجملها هو القول بأن " هذه المخلوقات ممكنة حادثة ، وكل من كان كذلك لابد له من موجد ، فهذه المخلوقات لابد لها من موجد " (٣) .

---

(١) المقصود بوجه الدلالة ههنا ، يعني الوجه أو الناحية التي يستدل على وجود الله تعالى بها .
(٢) الامام الشيخ / ابراهيم الباجوري — حاشية تحقيق المقام على كفاية العوام فيما يجب عليهم من علم الكلام ص ١٦ ط الحلبي الأخيرة سنة ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م .
(٣) المصدر السابق ص ١٦ .

وقد هب أكثر مشايخ المعتزلة ، الى أن هذه المقدمة استدلالية ، واستدلوا عليها . *

اذن هذه المقدمة التى ذكرها الشيخ الايجى والباجورى ليست بدهية ، على النحو الذى سلف وانما هى استدلالية ، فالقول بأن العالم حادث ، لما مر ، وكل حادث فله محدث ، لاشك أنهما استدلالية لابد من اقامة الحجة عليها سواء بالنسبة للمقلد أو غيره .

* نعم . سلك المعتزلة مسلك الاستدلال على هذه المقدمة الثانية وكل حادث فله محدث ، وان لم يكن استدلالا لجمهورهم الا أنه استدلال لأكثر مشايخهم الذين يعتد بهم ، ولو كانت بدهية لما احتاجت الى استدلال عليها لاعند العوام ، ولا عند العلماء ، وقد اتخذ استدلال المعتزلة عليها نمطين من أنماط البحث العلمى هما :

(١) الأفعال الانسانية :

ومجمل هذه الناحية أن كل امرء منا يشاهد فى نفسه أن أفعاله لم تكن ثم كانت ، وبالتالى فهى محدثة ومحتاجة الى الفاعل الذى يحدثها ، وهذه مسألة تقع من الناس جميعا موقع القبول والاستدلال عليها طالما كانوا مميزين ، فكذلك الجواهر المنبثة فى الكون مثلة له كله ، فهى كذلك محدثة ، وبالتالى فالعالم كله محدث ، لأن علة الاحتياج بين أفعالنا التى لم تكن ثم كانت ، والعالم العنصرى الذى لم تكن أجزاؤه موجودة ثم وجدت هى الاحتياج للفاعل ، وهى علة مشتركة بين الجواهر التى يتكون منها العالم ، وبين الأفعال الانسانية فثبت أنها جميعا محتاجة .

=

: تارة بأن أفعالنا محدثة ومحتاجة الى الفاعل لحدوثها ، فكذا الجواهر المحدثة لأن علة الاحتياج مشتركة .

وأخرى : بأن الحادث قد اتصف بالوجود بعد العدم ، فهو قابل لهما ، فيكون ممكنا ، وكل ممكن يحتاج فى ترجيح وجوده على عدمه الى مؤثر كما سلف فى الأمور العامة . *

الثاني : الاستدلال بامكانها ، وهو أن العالم الجوهرى ممكن ، لأنه مركب من الجواهر *

= (٢) اتصاف الحادث بالوجود بعد العدم :

لاشك أن الحادث الذى كان لم يكن موجودا ، ثم اتصف بالوجود بعد العدم ، فهو — الحادث — قابل لهما — للوجود والعدم — فيكون ممكنا ، وكل ممكن يحتاج فى ترجيح وجوده على عدمه الى مؤثر يخرجه من العدم الى الوجود .

* اذن انتهى بيان الوجه الأول من الوجوه الأربعة ، التى يستدل بها المتكلمون على اثبات وجود الله تبارك وتعالى ، ويعنون به الاستدلال بحدوث الجواهر ، وقد بان لك الموقفان من المقدمة الثانية ، وانتهى الأمر الى أن الامام الايجى والجرجانى يعتبرانها بدهية ، على حين يراها أكثر شيوخ المعتزلة استدلالية .

* شرع الامامان فى عرض الوجه الثانى ، وهو الاستدلال بامكان الجواهر — بعد أن فرغ من الاستدلال بحدوثها — فبيّن أن العالم الجوهرى المركب من الجواهر ممكن ، لأنه يتساوى فيه الوجود والعدم لكن من ناحية أخرى هو ممكن لأنه مركب من جواهر، ثم شرع فى ذكر

أنواع الجواهر على النحو التالى :

(١) الجواهر الفردة : هى التى يتركب منها الجسم ، وكأن عبارة الشيخ : أن العالم الجوهرى ان كان جسما فهو مركب من جواهر فردة ، تكون هى اللبنات التى يتركب منها . باعتبار أنها المواد الأولية فى تكوينه .

(٢) الجواهر المركبة : وهى التى تمثل الجسم ككل . حيث أن الجسم يتركب عادة وتشمله جواهر مركبة ليست متفرقة ولافردة ، وكان عبارة الشيخ أن العالم الجوهرى ان كان جسما أو جوهرا فردا فهو مركب من كثير ، وليس من جواهر فردة على ماذكر فى الناحية الأولى .

وطبقا لهذا المفهوم فالعالم العنصرى كله ممكن محتاج لعلة مؤثرة تجمع تلك الأجزاء وتركب فيما بينها حتى تخرج بها من العدم الى الوجود ، ولايكون ذلك لعلة ممكنة والا عاد الأمر الى نفس العلة الممكنة حتى ينتهى حتما الى علة مؤثرة وهى واجب الوجود لذاته وهو الله رب العالمين .

الفردة ان كان جسما ، وكثير ان كان جسما ، أو جوهرا فردا ، والواجب لاتركيب فيه ولاكثرة ، بل هو واحد حقيقي ، وكل ممكـــن، فله علة مؤثرة " *

---

* أراد الشيخ اثبات أن العالم مركب ، وليس واحدا ، ومن ثـــم لايصلح علة مؤثرة لايجاد نفسه من العدم الى الوجود وأبطل كـــون واجب الوجود مركبا ، ثم ذكر أن واجب الوجود " (١) وهو الله سبحانه وتعالى لاتركيب فيه ولاكثرة ، لأن المركب المتكثر هو العالم الجوهرى على مامر ذكره ، أما الواحد الأحد فهو واحد حقيقي .

وهناك فرق بين الواحد الحقيقي ، وبين الواحد الاضافي :

الواحد الاضافي: هو : واحد بالعد ، وان اشترك مع غيره في سائـــر صفاته ، وليس واحدا على الحقيقة ، انه متعدد في أجزائه ، فـــى ذاته ، في صفاته ، في أفعاله ، وفيه واحدية وليس وحدانية .

الواحد الحقيقي: فهو الله سبحانه وتعالى المتصف بالواحدانية فـــى الذات ، وفي الصفات ، وفي الأفعال ، فمعنى كون " الله تعالـــى واحدا في ذاته ، أن ذاته تعالى ليست مركبة من أجزاء ، والتركيـــب يسمى كما منفصلا ، ومعنى أنه ليس ذات في الوجود ، ولافي الامكان

---

(١) واجب الوجود اصطلاح فلسفي دخل المؤلفات الكلامية بعد أن اختلطت المباحث الكلامية بالنظريات الفلسفية واستخدم المتكلمون مصطلحات الفلاسفة والمناطقة وألفاظهم .

....

تشبه ذاته تعالى ، وهذه المشابهة المستحيلة تسمى كمًّا منفصلا ، فالوحدانية في الذات نفى الكمين المتصل في الذات والمنفصل فيها " (١)

اذن انتهى الشيخ الى أن الواحد الحقيقى هو الواجب الوجود المستغنى عن الكل ، وأنه لاتركيب فيه ، ولاكثرة تلحقه ، بل هو منفرد فى كل شيء ، وكل ما فى الوجود غيره مفتقر اليه ، باعتبار أن ما سواه جل علاه ممكن ، وراجع الى الله تعالى باعتباره سبحانه وتعالى العلة المؤثرة فى وجود الكل ، واخراجهم من العدم - باعتبارهم ممكنات - الى الوجود ، ومن ثم أثبت الشيخ ضرورة اثبات واجب الوجود ، الخالق البارى جل علاه من ناحية امكان الجواهر كلها ، واحتياجها الى علة مؤثرة هى الله رب العالمين .

بيد أنى لاأجد فى صدرى رغبة على موافقة الشيخين فى تسمية الله سبحانه وتعالى علة مؤثرة ، لما سبق التنويه اليه ، وهو أنى أحب اطلاق الأسماء الحسنى ، والصفات العظمى على الله سبحانه وتعالى باعتبارها نقلا يجب اتباعه ، وكان الأولى التخلص من لفظ العلة ، ويقال كل ممكن محتاج فى وجوده الى خالقه وهو الله رب العالمين .

---

(١) الشيخ محمد بن الشافعى الفضالى - كفاية العوام فيما يجب عليهم من علم الكلام هامش حاشية تحقيق المقام ص ٤١ .

الثالث : الاستدلال بحدوث الأعراض :

أما في الأنفس : مثل ما نشاهد من انقلاب النطفة علقة ، ثم ثم مضغة ، ثم لحما ودما ، اذ لابد لهذه الأحوال الطارئة على النطفة من مؤثر صانع حكيم ، لأن حدوث هذه الأطوار لامن فاعل محال ، وكذا صدورها عن مؤثر لاشعور له ، لأنها أفعال عجز العقلاء عن ادراك الحكم المودعة فيها * .

---

* هذا هو الوجه الثالث وقد لخصه الشيخ باسم حدوث الأعراض وقسمه الى قسمين .

أ — ما يتعلق بالأنفس :

وهو كثير جدا ، فمثلا النطفة يضعها الذكر في رحم أنثاه ، فاذا بها تتحول فيما بعد الى علقة حتى تمكث فترة ، ثم تنقلب العلقة مضغة ثم تتحول هذه المضغة الى لحم وعصب وعظم ودم ، وهي أحوال غير ثابتة في النطفة ، وانما هي طارئة عليها ، ولايعقل أن تكون هذه الأحوال كامنة في النطفة ذاتها ، وأنها التي تتحول من حال الى حال ، ومن غير أن يكون لها مؤثر حكيم ، ينقلها من حال الى حال حسب احتياجها حتى تبلغ الاكتمال ، وبالتالي فلابد لهذه النطفة من فاعل مؤثر له بها علم وحكمة ، وهو الله رب العالمين .

وقد سبقت الاشارة الى أن هذا الدليل قد أشار اليه الامام الأشعري ، وذكرته عنده على أنه دليل كوني قرآني ، وليس دليلا يقوم على حدوث الأعراض ، كما هو الشأن ههنا ، ودليلي قائم على ماسبق

أن أشرت اليه فليرجع اليه من شاء (١) .

يقول البروفيسور الكندى كيث ل . مور — وهو من أشهر علماء العالم فى علم الأجنة ، ورئيس قسم التشريح والأجنة بجامعة تورمنتو بكندا ورئيس الاتحاد الكندى الأمريكى لعلماء الأجنة — أن الجنين عندما يبدأ فى النمو فى بطن أمه يكون شكله يشبه العلقة أو الدودة ... وعرض صورة بالأشعة لبداية خلق الجنين ، ومعها صورة للعلقة ، فظهر التشابه واضحا بين الاثنين ، ولما قيل له أن العلقة عند العرب معناها الدم المتجمد ... ذهل . وقال : ان ماذكر فى القرآن ليس وصفا دقيقا فقط لشكل الجنين الخارجى ، ولكنه وصف دقيق لتكوينه ذلك أنه فى مرحلة العلقة تكون الدماء محبوسة فى العروق الدقيقة فى شكل الدم المتجمد" (٢)

اذن هذا الدليل القائم على تبدل أحوال النطفة ، وتغير أوصافها انما يمثل دليلا قويا على احتياج الأعراض الى كل تقوم به ، وهو الجواهر كما أن تطورها لايكون من نفسها لأنها محتاجة ، كما أنها لايمكن أن تأتى من مؤثر لاشعور له بها ، بل لابد من عاقل عالم بالحكم التى أودعها نفسه فيها ، ولايكون ذلك المؤثر الفاعل العالم الا الله جل علاه .

(١) لمزيد بيان يمكن الرجوع الى دليل الامام الاشعرى فيما سلف من صفحات .
(٢) فضيلة الاستاذ الشيخ / محمد متولى الشعراوى — الأدلة المادية على وجود الله ص ١١٨ ، ١١٩ ط ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

وهناك من يميل الى أن النطفة تتطور بنفسها ، بناء على خاصية مودعة فيها ولسنا معهم ، لأنها غير عاقلة فكيف تطور نفسها حتى يصير لها أذنان ، وعينان ، وعقل وسائر الجوارح ، وقد وجدت فاقدة لها جميعا ؟! وفاقد الشيء لايعطيه •

كما أن مسألة علاقة الأسباب بالمسببات دار حولها القول : حتى قال أحد العلماء : أعلم أن العقلاء على أربعة أقسام :

الأول : " من اعتقد أن الأسباب العادية تؤثر في مسبباتها بطبعها وذاتها ، والتلازم بينهما عقلي ، وهذا كافر اجماعا " •

الثاني : " من اعتقد أن الأسباب العادية تؤثر في مسبباتها بقوة أودعها الله فيها ، والتلازم بينهما عادي وهذا في كفره قولان والصحيح عدم كفره ، ومن هذا يعلم أن الصحيح عدم كفر المعتزلة لأنهم يقولون أن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقوة أودعها الله فيه ، وهي القدرة الحادثة التي خلقها فيه" •

الثالث : " ومنهم من يعتقد أن المؤثر في المسببات العادية كالاحراق والري والشبع هو الله وحده ، الا انه يعتقد أن الملازمة بين الأسباب والمسببات عقلية لايمكن تخلفها ، فمتى وجدت النار وجد الاحراق ، ومتى وجد الأكل وجد الشبع ، وهذا غير كافر اجماعا ، الا أن هذا الاعتقاد جهل ، وربما جره ذلك الجهل الى الكفر ، لأنه يلزمه انكار ماخالف العادة ، فربما أنكر البعث واحياء الموتى فيكفر ، وذلك لأن العادة أن الميت

اذا مات يوضع فى القبر ولا يحيا بعد ذلك ، فربما اعتقد أنه لا يمكن تخلف ذلك فينكر البعث ، واحياء الموتى فيكفر ....

الرابع : ومنهم من يعتقد أن المؤثر فى المسببات العادية هو الله وحده ، وأن الملازمة والمقارنة بين الأسباب والمسببات عادى يمكن تخلفه ، بأن يوجد السبب دون المسبب ، وهـــذا الاعتقاد هو المنجى عند الله ، وهو اعتقاد أهل السنة " (١)

وقد نقلت اليك هذا الكلام لأهمية ما احتوى عليه ، هدانى اللــه واياك ، ووفقنى ورعانى ورعاك ، وأبعدنى وأبعدك عن الضلال ، ونجانى ونجاك ، انه سبحانه يعلم سرى ونجواى ونجواك .

---

(١) الامام محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقى ـ حاشية على شـرح أم البراهين ص ٤٠ ، ٤١ ط الحلبى الأخيرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م — ٢٢١ .

وأما فى الآفاق : كما نشاهد من أحوال الأفلاك ، والعناصر والحيوان ، والنبات ، والمعادن ، والاستقصاء مذكور فى الكتاب المجيد ، ومشروح فى التفاسير" *

---

* تحدث الشيخ عن جانب واحد من وجه الاستدلال بحدوث الأعراض ، وكان هذا الوجه هو تأمل مافى الأنفس من تطور ومراقبة مايرد عليها من أحوال ، حتى انتهى الى استحالة تطورها من نفسها ، واستحالة استنادها الى مؤثر غير عالم لها ، واستحالة كون هذا المؤثر غير متصف بصفات الكمال والجلال ، والتأثير التام .

ب ـ ما يتعلق بالآفاق :

لعل الشيخ قصد بالآفاق ههنا قمم هذه المخلوقات باعتبارها أجناسا تحتها أفرادها ، أو باعتبار تقلباتها وتبدل أحوالها " والآفاق جمع أفق ، والمراد آفاق أقطار السماوات والأرض" (١) وقد جاء ذلك فى القرآن الكريم ، قال تعالى " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " (٢)

مما لاشك فيه أن الآفاق متعددة فهناك :

(١) الآفاق الكونية ـ الأفلاك ـ .

أ ـ الشمس .　　ب ـ القمر　　جـ ـ الكواكب

د ـ الجاذبية العامة .

---

(١) الدكتور / محمد محمود حجازى ـ التفسير الواضح جـ ٢٥ صـ ٦ .

(٢) سورة فصلت، الآية رقم ٥٣

. . . .

---

(٢) الآفاق الفضائية :

أ - الغلاف الجوى .

ب - الحرارة .

جـ - البرودة .

د - الجاذبية الخاصة ، جاذبية القمر ، جاذبية الأرض.

هـ - طبقة الأوزون .

و - أطراف الفضاء من أعلى وأسفل .

(٣) الأفلاك العلوية :

أ - الأجرام السماوية .

ب - السدم .

جـ - المجرات .

د - الشهب والنيازك .

هـ - الأطباق الطائرة .

بل ان الآفاق فى كل مما هو يمكن البحث فيها فنرجع بأقسام أكثر من سابقتها بكثير ، وآية ذلك أن الله تعالى سماها الآفاق دون أن يقيدها بأجناس أو أنواع ، وانما ذكرها هكذا حتى يتيح للعقل التأمل ، ويدفعه لمزيد بحث وتركيز مع تأمل واندفاع نحو هذه الآفاق علّه يبلغ منها مبلغا ، أو يصل بها الى غاية ، وأنّى له .

....

وكذلك آفاق العناصر فهي مختلفة ومتباعدة وفيها من الكثرة ما لا يجدي مع مجهود دارس وحده ، وانا لابد من مشاركة الكثير من الجهود وبذل المزيد من المجهودات مع تعاونها جميعا على هدف واحد وغاية واحدة .

بل ان آفاق الحيوان متعدد في أنماطه السلوكية بين العدواني والمستأنس ، والأهلي والمتوحش ، وساكن الغابة ، وطريد الصحارى وقابع في أعماق المياه ، وبين آكل لحم الحيوان ، أو آكل النبات ، أو غيرها مما يطول ذكره ، وتتحدث عنه كتب الحيوان التي يدرس من جانبها التشريحي طلاب الطب البيطري ، وخلافه يقوم به خلافهم .

وكذلك النبات والمعادن ، بل والجبال ، وقشرة الأرض والطفو والجاذبية ، وغيرها مما يمثل آفاقا برأسها مستقلة عن غيرها ، فما بالك بآفاق المياه العذبة ، والأخرى المالحة ، بل ما بالك بكثرة المالحة في البحار والمحيطات وقلتها في العذبة حيث الأمطار والجداول الرقراقة والأنهار وبعض العيون والآبار ، أنها جميعا آفاق متنوعة ، الا أن هذه الآفاق المعتبر فيها هو أعراضها البادية فيها وكونها حادثة ، لأنها متغيرة ، فمن تغيرها بان حدوثها ، ومن حدوثها احتاجت الى محدث لها ، ولا يمكن أن تحدث نفسها ، والا لزم من المحالات العقلية مايلي :

....

أ - يلزم قيام العرض بنفسه ، وهو محال عقلى .

ب - يلزم سبقه على نفسه باعتباره الفاعل المحرك ، ويلزم تأخره عن نفسه باعتباره المفعول المحرَّك ، فيقع فيه الأمران ، كونه فاعلا مفعولا فى آن واحد ، وهو محال عقلى . من ثم نبه الشيخان - الايجى والجرجانى - الى أهمية هذا الوجه الثالث وهو الاستدلال بحدوث الأعراض ، لأنه يمثل عمدة فى اثبات الحدوث للأعراض حتى ينسحب الحكم بالحدوث على الجواهر ، وهو الذى دافع عنه الأشاعرة ، وهاجمه الفنارى على ما سلف بيانه .

الرابع . الاستدلال بامكان الأعراض مقيسة الى محالها ، كما استدل به موسى عليه السلام ، حيث قال : "رَبُّنَا ٱلَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ " أى أعطى صورته الخاصة ، وشكله المعين المطابقين للحكمة ، والمنفعة المنوطة به . *

---

* هاهو الوجه الرابع ، من الوجوه التي عقدها الشيخ الايجى وشارحه ، قد أقبل متهللا ، يحمل الاستدلال بامكان الأعراض مقيسة الى محالها ، وهذا القيد الذى هو مقيسة الى محالها ، مما جرى عليه التأليف فى مثل هذه المسألة لأن العَرَض سبق أن فُصِل عن الجوهر فى الذهن ، وبالتالى فان اثبات امكانه فى نفسه من حيث أنه محتاج الى جوهر يلحق به أكثر بيانا من اثبات امكانه فى محله .

وربما يقال كيف يكون أكثر بيانا فى امكانه فى نفسه ، من امكانه مقيسا الى محله ؟ والجواب من وجوه :

الأول : مفهوم العَرَض ، أليس هو الذى لايقوم بنفسه ؟ نعم هو الذى لايقوم بنفسه ، ومن ثم فانه فى نفسه محتاج الى من يكسبه صفة الالتحاق بالغير الذى يقوم به .

الثانى : أليس العرض مما يقع فى فصله عن الذوات التنازع ؟ نعم . وقع فى فصله عن الذوات التنازع ، ومن ثم فانه الذى يمكن فهمه من كنه حقيقة العرض فى نفسه وامكانه بذاته .

الثالث : المعلوم أن العرض له شكل معين ، ووصف معين ، ومنافع تناط به ، سواء كان فى محل أو فى نفسه ، بل انه فى نفسه

أكثر احتياجا منه لو كان فى محل يقوم به .

والشيخ ركز على امكان الأعراض قيسة الى محالها ، باعتبار أن المحل هو الذى يكسب العرض وصفا يمكنه التعبير به - الوصف عند الغرض - تكون العرض فى صورة خاصة ، أو شكل معين ، على أن يكون ذلك كله فى حدود أمرين :

الأول : مطابقة العرض فى محله الحكمة من وجوده .

الثانى : تحقق المنفعة المنوطة به .

وعلى هذا جرى الشيخان - المؤلف والشارح - فاذا ثبت أن الأعراض فيها نوع تخصيص بحيث تؤدى هذه منفعة ، وتلك منفعة أخرى ، أو هذه تهدى الى حكمة ، وتلك تهدى الى منفعة أخرى ، أمكن القول بأن كافة الأعراض ممكنة ، من حيث أنها تتبدل عليها المنافع ، وتجرى عليها الحكمة .

وقد اقتبس الشيخ من النقل القرآنى فى قوله تعالى " قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى " (١) ، والبادى أن السؤال الوارد على سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، هو السؤال عن رب موسى وهارون ، ورب بنى اسرائيل ، فأجابه كليم الله ، بأنه الذى أعطى كل مخلوق ما أعطاه من خلقه ، وترتب منفعة ، مع مطابقة ما فيه من خلقه لما ترتب عليه من منفعة ولا يفعل ذلك الا الله رب العالمين ، فثبت ضرورة الايمان بوجود

وهو أن الأجسام متماثلة متفقة الحقيقة ، لتركبها من الجواهر المتجانسة ، على ماعرفت . فاختصاص كل من الأجسام بما له من الصفات جائز ، فلابد في التخصيص من مخصص له . *

---

* أراد الشيخان التفرقة بين مفهومين كل منهما يثبت به امكان الأعراض ، وهما :

الأمر الأول : تماثل الأجسام في حقيقتها .
الأمر الثاني : تخالفها بما يخص كلا منهما .

أما الأول : وهو تماثلها ـ الأجسام ـ فهذا قائم على اعتبار أن كافة الأجسام مركبة من جواهر متجانسة في التركيب ، لما سبق قوله من أن العالم الجوهري مركب من جواهر فردة باعتباره جسما ، وكل جسم مركب من هذه الجواهر ، وبالتالي يقع التماثل بين كافة هذه الأجسام .

أما الثاني : وهو تخالفها بما يخص كلا منهما فبيّنٌ من أن كل جسم له صفات معينة ، من الطول والعرض والعمق ، والألوان والأحجام والأشكال ، بل انك عند حسابه عدّا لاتستطيع القول بأن الأول هو الأول الى مالا نهاية ، وانما تقول على أحدهما هذا رقم ١ ، ثم على الثاني رقم ٢ ، وهلم جرا ، اذن وقع التخالف والتمايز بينهما جميعا .

فمع انها مشتركة في الجسمية ، الا أنها مختلفة في الأوصاف ، وبالتالي نقول ، ان اختصاص كل جسم منها بماله من الصفات أمر وارد ، ومن ثمّ يحتاج كل جسم الى مخصص يعطى هذا الجسم صفاته ، ويعطى الثاني صفاته وهذا المخصص لايمكن أن يكون الجسم نفسه ، وانما لابد من مخصص ، هذا المخصص هو الله سبحانه وتعالى واجب الوجود لذاته .

. . . .

فمثلا السماوات باعتبارها أجساما ، فان كل واحدة منها تختلف عن الأخرى في الأوصاف ، وان اشتركت في الجسمية ، فهذه الاولى وتلك الثانية ... الخ ، وكذلك الأرضون السبع مشتركة في الجسمية ومع هذا تخالف كل واحدة الأخريات بما لها من الصفات التي لاتنطبق الا عليها ، وهذا التخالف هو التخصيص ، ولايكون من ذاتها ، انما لابد من مخصص له من صفات الجلال والكمال مالاينطبق على أحـــد سواه .

بل ان النبات أجسام ومع هذا فالنخل يخالف التوت ، والعنب يخالف اللوف ، والبرتقال غير التفاح ، وكلها يقع الاشتراك بينها فـي الجسمية ، لأنها جميعا أجسام ، ولكن كل منها له صفات مميزة من لون وحجم وخلافه ، وطبقا لهذا فان هذه الصفات المميزة لايمكن أن تكـون من ذات الأجسام ، وانما من مخصص له القدرة التامة العاملة الشاملة ، وله مطلق الارادة المخصصة ، وله العلم المحيط الكاشف ، ولايكـــون ذلك الا الله اللطيف الخبير ، فثبت ضرورة وجود الله سبحانه وتعالى .

ثم بعد هذه الوجوه الأربعة نقول : مدبر العالم . ان كان واجب الوجود ، فهو المطلوب ، والا كان ممكنا . فله مؤثر ويعود الكلام فيه ، ويلزم اما الدور أو التسلسل ، واما الانتهاء الى مؤثر واجب الوجود لذاته. *

---

* بعد أن عرض الشيخ الوجوه الأربعة التي أشار اليها في صور المسلك الأول ، حاول بلورة المسألة عنده سالكاً دليل الامكان ، فقال : مدبر العالم ان كان واجب الوجود ، فهو المطلوب اثباته ، وينتهي الأمر الى اثبات وجود الله تعالى على ما هو موضوع هذا المقصد ، ويتم المراد ، وان لم يكن مدبر العالم - فرضا - واجب الوجود ، فلاشك أنه سيكون ممكنا ، ويحتاج الى مؤثر ، ثم يقال نفس القول على المؤثر وهكذا حتى يقف الأمر عند حد اثبات واجب الوجود ، لأن المعروف أن " كل من وجب افتقار العالم اليه لايكون وجوده الا واجبا " (١) .

كما تحدث عن كل من الدور والتسلسل حيث يتم الانتهاء الى ابطال الدور ، وابطال التسلسل ، واثبات واجب الوجود لذاته ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وهو المطلوب ويحسن بنا أن نقدم تعريف الدور والتسلسل والأنواع التي ترجع اليها .

---

(١) الشيخ عبد السلام اللقاني - اتحاف المريد على جوهرة التوحيد ص ٥٩ ط الحلبي .

﴿الفصل الثالث﴾

((موقف العلماء من الدور والتسلسل))

أولا : الدور

أ — تعريفه : الدور هو دوران الشيء حول نفسه ، ورجوعه لمبدئه كما يعرف بأنه : " توقف الشيء على ما يتوقف عليه " (١) .

ب — أنواعه :

١ — الدور الصريح هو توقف الشيء على ما توقف عليه بمرتبة واحدة ومثاله محمد أوجد خالدا ، وخالدا أوجد محمدا ، فالتقدم ، والتأخر هنا بمرتبة واحدة ، والمراد بها الواسطة وهو خالد .

٢ — الدور المضمر ، هو توقف الشيء على ما توقف عليه بمراتب .

٣ — الدور المعى : وهو توقف كل على صاحبه الآخر ، وهو موجود بين كل متلازمين . (٢)

٤ — الدور السبقي : وهو توقف الشيء على نفسه ، حتى يكون الشيء سابقا ولاسابقا ، ومتأخرا ولا متأخرا ، ومؤثرا ولا مؤثرا وأثرا ولا أثرا ، وأنه هو ، وأنه ليس هو ، وهذا الدور مستحيل ضرورة .

والدور بأنواعه باطل متى روعى فيه أمر نتائجه ، وكان الدور محصورا اللهم الا الدور المعى فانه يقبل لأنه لايترتب عليه انكار بدهيات ، أو طعن فى ضروريات ، فلا استحالة فيه ، اذ أنه قائم على اتحاد السبب المقتضى لهما معا — أطراف الدور المعى — ، ولكن لاتوقف على الحقيقة

(١) الشريف الجرجاني التعريفات مادة دور ص ٩٤ .
(٢) هناك فرق بين " الدور وتعريف الشيء بنفسه ، هو أن الدور يلزم تقدمه عليها بمرتبتين ان كان صريحا وفى تعريف الشيء بنفسه يلزم تقدمه على نفسه بمرتبة واحدة المصدر السابق ص ٩٤ .

. . . .

بينهما انما هو كالتعريف الاضافى الاعتبارى قياسا (١) .

وقد لفت الشيخ الأمير فى حاشيته الأنظار الى وجه يبطل به الدور كلية ، هو: " أن مجموع ما فى الدور حادث ، ضرورة حدوث كل جزء ، فلابد للمجموع من مؤثر ، فإما نفسه وهو هذيان ، أو بعضه فالشئ لايكون علة لنفسه وغيره ، فتعين أنه خارج عنه ، فليكن هو المؤثر فى كل جزء ، وانتقض الغرض فليتأمل " (٢) .

والشيخ الأمير قرر بطلان الدور بناء على كون الفاعل أحدث فعلا ، ثم صار الفعل المحدث فاعلا ، ولاشك أن هذا حادث ضرورة أنه لم يكن ثم كان ، واذا ثبت هذا على أفراد الدور فقد ثبت كذلك على مجموعه ، ومايصدق على الجزء ينسحب حتما الى سائر أفراده ، لوجود المماثلة فى كل منها .

لكن ربما يقال : ان هذا الابطال قائم على مجرد الفرض وليس الواقع ، أهو الوجود الخارجي ؟ والجواب : أننا نبطل الدور أيضا بالفرض ، فكما أثبتوه فرضا ، فانا نبطله على هذه الناحية ، بصرف النظر عن وجوده فى الواقع الخارجي من عدمه ، هذه ناحية .

---

(١) الشيخ محمد الأمير — حاشية محمد الأمير ص ٦٠ بتصرف .

(٢) الشيخ محمد الأمير — حاشية الأمير ص ٦٠

. . . .

وناحية ثانية هي أن الموجودات أنواع ثلاثة :

النوع الأول : موجود في الذهن ، أي ثابت ومتحقق فيه .

وذلك كوجود الباري جل علاه ، " وصفاته الوجودية ، وفي ذواتنا وصفاتنا كذلك ، فإنها من حيث استحضارها في الذهن يقال لها موجودة ، أي ثابتة فيه " (١) .

النوع الثاني : موجود في نفس الأمر : أي موجود بقطع النظر عن اعتبار آخر .

وذلك كالذات الباري من حيث هي على الكنه والحقيقة : فإنهما موجودة في نفس الأمر ، وكذلك الأشياء الموجودة تحت الأرضين أو فوق السماوات التي لم تخطر بذهن أحد ، فإنها موجودة في نفس الأمر أي في نفسها لا في الذهن لعدم خطورها فيه " (٢) ومع هذا فهي لاتحتاج الى وسيط يمثل اعتبارا حتى يمكن التعرف عليها .

النوع الثالث : موجود في الخارج : أي خارج الأعيان بحيث تمكن رؤيته لو أزيل الحجاب ، وذلك كاللوح والكرسي والعرش والقلم ، لأن كل موجود في الخارج موجود في نفس الأمر ، وليس كل موجود في نفس الأمر موجودا في خارج الأعيان ، ومن المقرر أن " الوجود في خارج الأذهان هو الوجود في نفس الأمر " (٣) باعتبار أن الوجود في نفس الأمر أعم من الوجود في الخارج .

---

(١) الشيخ عبد الله بن حجازي الشرقاوي . حاشية الشرقاوي على شرح الهدهدي ص ٣١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣١ (٣) المصدر نفسه ص ٣١ .

....

اذا تحقق هذا فلا شك أن الدور قائم على أحد هذه الأنواع من الوجود ، فابطاله كذلك على هذا النحو الذى ورد به ، حتى لو جاء الفرض في الطريق كمعبر أو جسر فالمنازلة قائمة ، والمنازعة مستمرة ، وابطال الدور بأنواعه أمر قائم ، بل ان الاقرار به مستحيل .

ثانيا : تعريف التسلسل :

التسلسل هو " ترتب أمور غير متناهية "[1] فكل دور تسلسل في المعنى "

كما يعرف بأنه : " توالى عروض العلية والمعلولية ، لا الى نهاية بأن يكون كل ما هو معروض للعلية معروضا للمعلولية ، ولاينتهى الى ماتعرض له العلية دون المعلولية فان كانت المعروضات متناهية فهو الدور بمرتبة ، ان كانا اثنين ومراتب ان كانا فوق الاثنين ، والا فهو التسلسل "[2] .

٢ - أنواع التسلسل :

(١) تسلسل الحوادث : وهو تسلسل العلل والمعلولات ، فكل علة لها معلول ، وكل معلول لابد له من علة ، وكلها حوادث مستندة الى بعضها ، استناد المعلول للعلة ، والفرع للأصل .

---

(١) التعريفات ص ٤٨
(٢) الشيخ محمد الأمير - حاشية الأمير ص ٦٠

....

(٢) تسلسل الأعداد : وهو يقوم على أن الأعداد تتسلسل الى مالانهاية له ، وربما استخدموا اصطلاح اللانهائى فى الأرقام الحسابية تيسيرا للوصول الى أعداد الكائنات فى الكون كله ، بحيث يكون مفهوم العدد هو التسلسل الى مالانهاية له ، ومنه تسلسل السنوات والزمان .

(٣) تسلسل الممكنات : ومعناه أن كل ممكن سبقه ممكن آخر ، ولحقه ممكن بعده ، وتظل هذه الممكنات متسلسلة كالنطفة التى يأتى بعدها الحيوان الناشئ عنها ، وتسلسل النبات من بذوره ، وأنهار المياه من قطرات المطر الى آخره فانها جميعا ممكنات متسلسلة الى مالانهاية له سواء فى الماضى ، أو فى المستقبل على ما يزعمون .

(٤) تسلسل الاعتبارات : وهو يقوم على وجود هيئة مجتمعة وجودا ، اعتباريا لازيادة له فى الخارج على وجودات الآحاد ، المنبثة فيه .

وكل هذه الأنواع من التسلسل ، سواء التى ذكرت أم التى لم تذكر قد تناولها علماء الاسلام وأثبتوا بطلانها بطريق أو آخر حتى ينتهى الأمر الى اثبات موجود واحد هو الذى ترجع اليه الموجودات كلها ضرورة ، وهو الله سبحانه وتعالى . ويحسن بنا أن نذكر بعض جهودهم فى ابطال التسلسل بكافة أنواعه .

. . . .

ب — جهود العلماء في ابطال التسلسل :

ذكر العلماء لابطال التسلسل وجوها عديدة ذكرت في المطولات والشروح والحواشي ، وها نحن نحاول تقديم جانب منها حسب ماتسمح به الظروف ، ومن هذه الوجوه التي ذكروها لابطال التسلسل مايلي :

الوجه الأول : بطلان التسلسل بحدوث أجزائه :

وهذا الوجه قائم على أن كل أفراد التسلسل حادثة في أفرادها وحادثة في جملتها ، والمعلوم أن الشيء لايكون علة لنفسه وغيره ، فتعين أنه خارج عنه ، فليكن هو المؤثر في كل جزء من أجزائه ، كما أن المجموع يشعر بالتناهي ، وفيه اجتماع العلة مع المعلول في الشيء الواحد ، وهو مخالف لبديهيات العقول .

فان قالوا " المجموع حادث مستند لفرد من سلسلة أخرى لانهاية لها ومجموع الثانية مستند لفرد من ثالثة لانهاية لها وكذا " (١) ولكن الرد عليهم سهل يسير اذ يمكن القول بأن السلسلة الثالثة حكمها حكم ما سبق من السلسلتين الأولى والثانية اما أن تكون حادثة بحدوث أفرادها ، أو حادثة بحدوث المجموع ، وينتهي القول الى اثبات الحدوث لكافة الأجزاء ، ومن ثم يتعين احتياجها الى الباري جل علاه .

الوجه الثاني : بطلان التسلسل بالقطع والتطبيق :

" وهو عمدتها وأشهرها بأن تفرض السلسلة من الآن لما لانهاية له في الأزل ، وتقطع أخرى من الطوفان مثلا لما لا أول له ، وتطبق أول

---

(١) الشيخ محمد الأمير — حاشية الأمير ص ٦١ .

الأخرى ، وترسلهما هكذا الى الأزل ، فاما أن يتساويا فيلزم مساواة الزائد للناقص ، أو يتفاوتا فليس الا بقدر من الطوفان الى الآن ، والتفاوت بالمتناهي يستلزم تناهيهما " (١)

المثال بالرسم التوضيحي :

السلسلة الأولى ←—— من الآن – الى ما لانهاية له في جانب الماضي .

السلسلة الثانية ←—— من الطوفان الى ما لانهاية له في جانب الماضي .

اذن التي من الطوفان قطعت عند الطوفان ، فتوقفت عند هذا سلسلة الحوادث فرضا ، وهو معنى القطع .

أما الثانية فكانت أطول لأنها من الأزل الى الآن ، ومابين الطوفان والآن فترة زمانية بعيدة ، وتسلسل حوادث متعاقبة .

نأتي الى أمر التطبيق :

وهو أن نأتي بكل حلقة من الأولى مع كل حلقة من الثانية على سبيل التطبيق ، ومن ثم فيلزم أحد أمرين :

الأولى : تساويهما . الزائد بالناقص ، وهو محال .

الثاني : تفاوتهما – بأن تكون الطويلة طويلة ، والقصيرة قصيرة فيحدث تفاوت بقدر ما بين السلسلتين من حوادث هي من الطوفان الى الآن . (٢)

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٦١

(٢) المصدر نفسه ص ٦١ وفيه أخذ ورد يحتاج اليها المتخصصون حيث فيها فائدة كبيرة ليرجع اليها من شاء .

. . . .

ثم نأتى لهذا القدر الذى تم التفاوت فيه فنراه محصورا بين الطوفان والآن ، ومادام محصورا فلاشك أنه متناه ، وحيث انه جزء لواحدة منهما ، ومشترك بينهما ، وقد وقع فيه التناهى . من ثم فان كلا من السلسلتين يتناهى طبقا لهذا المعنى الوارد ، ويثبت ابطال التسلسل على هذا الوجه أيضا ، وحيث ثبت ابطال التسلسل فقد وجب اثبات وجود خالق للكل هو الله رب العالمين .

الوجه الثالث : ابطال التسلسل بتلازم العلية والمعلولية :

ومؤدى هذا الوجه هو أن هناك تلازما بين العلية والمعلولية هو تلازم التضايف ، كالأبوة والنبوة ، "بحيث لايتحقق أفراد من هذه الا وقد تحقق بقدرها أفراد من هذه ، ألاترى متى تحقق عشر أبوات فلابد من تحقق عشر بنوات معها ، وان كان الأبن الأخير يوصف بالبنوة ، لا الأبوة ، فالجد الأعلى بعكسه ، فقد تكافأ ، وعلى تقدير سلسلة العلل المؤثرة غير متناهية يلزم تخلف هذا المجمع عليه عند العقلاء ، وذلك أن الأخير يوصف بالمعلولية دون العلية" (١) كما أن الأول الجد يوصف بالعلية دون المعلولية .

ومتى كانت علاقة التلازم بين العلية والمعلولية على هذا النحو قائمة أمكن القول : بأنها من أيسر الطرق لابطال القول بالتسلسل ، كما يمكن ابطاله على رأى الامام السعد بالقطع والتطبيق الذى سلف فى

---

(١) المصدر السابق ص ٦٢

الوجه الثانى ، وهو يقوم على تطبيق مبدأ سلسلة المعلولات ، وهى من الأخير على مبدأ سلسلة العليات ، وهى لامحالة مما قبل الأخير فان تساويا بحيث يكون كل فرد من هذه بازاء فرد من هذه ، وهكذا ، لزم مساواة الزائد للناقص ، والا لزم عدم التلازم بينهما وكلاهما محال (١)

الوجه الرابع : ابطال التسلسل بالفارق بين الأخير من السلسلة وما قبله .

وهذا الوجه قائم على أساس ملاحظة آخر فرد من أفراد السلسلة وما قبله مباشرة ، فيظهر أن آخر حلقة فى السلسلة تضم الأخير من أفراد التسلسل ، وهذا الفرد الأخير متناه لأنه محصور من حيث هو آخر ، وبالتالى تكون المسألة فى التسلسل قد انقطعت .

يقول الشيخ الأمير : " الرابع أن ما بين الأخير وكل فرد من السلسلة متناه ضرورة حصره بحاصرين ، فوجب تناهى السلسلة فإنها لاتزيد على مجموع ذلك إلا المبدأ والغاية " (٢) .

الوجه الخامس : ابطال التسلسل بضرورة سبق العلة .

لأنه من القواعد وجوب سبق العلة ، فلابد من فرد لها ليس معلولا ، وإلا كانت العلة والمعلول سببين فى التعاقب" (٣) أما كيف

(١) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٢ ولمزيد بيان الرجوع الى المواقف للامام العضد فى مبحث ابطال التسلسل الموقف الثانى المرصد الخامس فى العلة والمعلول المقصد الثامن فى التسلسل وكونه محالا وقد اكتفى بهذه الوجوه الأربعة . (٣) المصدر السابق ص ٦٢

. . . .

ذلك ، فلأن العلة يجب لها سبق معلولها حتى ينشأ عنها ، وبالتالى فلا بن فرد لها يسبقها ، ولا يكون معلولا لها ، وانما تكون هي علته ، وهى معلول . فكيف لها أن تسبق نفسها وتتأخر ، كما أن السبق أمر اعتبارى واثباته ابطال للتسلسل على مامر .

الوجه السادس : ابطال التسلسل بالضرورة العقلية :

وذلك أن السلسلة " اما أن تنقسم بمتساويين أوْ لا ، والا لارتفع النقيضان فتكون اما زوجا أو فردا ، وكل منهما متناه ضرورة حصره بين حاصرين ، فإن كل زوج أقل من الفرد بعده بواحد ، وأكثر منه قبله بواحد ، كالأربعة بعد الثلاثة وقبل الخمسة ، وكذا الفرد مع الزوج كالثلاثة بين الأثنين والأربعة " (١) .

وهذا الوجه ملاحظ فيه انقسام أفراد السلسلة الى :

أ ـ متساويين ، كأن تقسم السلسلة نصفين متساوين فرضا ، وعلى سبيل الحصر ، حتى لايرتفع النقيضان .

ب ـ غير متساويين . فمثلا يكون أحد النصفين منتهيا برقم فردى بينما الآخر منتهيا برقم زوجى ، أو العكس .

فاذا كان النصفان متساويين : بأن كانت نتائجهما واحدة فردا أو زوجا ، أو كانا غير متساويين ، بأن كان أحدهما زوجا والثانى فردا

---

(١) المصدر السابق جـ ٦٢

. . . .

ـ فلاشك أن التسلسل على هذا النحو باطل ، أما لماذا ؟ فلأننا لو فرضناه فردا فقد انحصر في فرديته والمنحصر متناه ، ولو فرضناه زوجا ، فهو أيضا متناه ، لأن الزوج أقل من العدد الذى بعده بواحد فمثلا: ٢ أقل من ٣ بواحد ، وأكثر مما قبله بواحد ، وهذه كلها منحصرة ، والمنحصر متناه . فثبت أن التسلسل باطل .

الوجه السابع : ابطال التسلسل بتقسيم السلسلة :

ومؤدى هذا الدليل هو أن " السلسلة محتوية على آحاد وألوف ، فإن كانت عدة آحادها مساوية لعدة جملها اذا قسمت ألوفا لزم مساواة الآحاد للألوف ، وان تفاوتا فبقدر متناه ، اذ ليس الا بقدر ما يزيده الألف على الواحد ، والمتفاوت بالمتناهى متناه" (١) .

فكأن هذا الوجه يراعى فيه مبدأ التقسيم النظرى بين آحاد السلسلة وآلافها ، بأن نجعل من ١ ـ ٩٩٩ قسما مستقلا ، ثم نجعل آلافها كما جعلنا آحادها قسما مستقلا كذلك ، وليكن مثلا ٩٩٩ ألف اذن معنا قسمتان هما :

أ ـ ٩٩٩ واحد

ب ـ ٩٩٩ الف

فاذا قلنا ان القسمة أ ـ مساوية للقسمة ب ـ رغم أن (أ) كلها لاتساوى الا واحدا من (ب) التى هى جمل الآلاف ـ كا.. مساواة الآحاد

---

(١) حاشية الشيخ الأمير صـ ٦٢

الموجودة بالقسمة (أ) مع الألوف الموجودة بالقسمة (ب) ، ولا يقول بهذا عاقل لأن الفرق كبير جدا ، واذا قلنا ان بينهما تفاوتا فلاشك أنه انحصر فى الآحاد الموجودة بالقسمة (أ) ومادام قد انحصر فلاشك أنه تناهى والمعروف ان المتفاوت بالقدر المتناهى يكون متناهيا . فثبت أن التسلسل باطل على هذا الوجه أيضا (١) .

وهذا الوجه والذى قبله سلف تناول بعض مواد هما فى الوجوه السابقة عليهما فليتأمل . ونعد بالرجوع اليها وتوضيحها ان شاء الله رب العالمين .

<u>الوجه الثامن</u> : الاضطراد والانقطاع :

ومجمل هذا الوجه قائم على أن كل فرد فى التسلسل لابد أن يحكم " بأنه فرغ قبله غيره ، فإما أن تستمر سلسلة الأحكام فتكون أزلية ، وهى مسبوقة بسلسلة المحكوم بوجودها قبل ، فيلزم سبق الأولى ـ من السلسلة ـ للأزلى ، وهو تناقض ، اذ المتأخر ليس أزليا ، أو تنتهى لفرد لايحكم بأنه فرغ قبله غيره فتنقطع السلسلة لكن هذا انما يتم اذا لزم من سبق الفرد للفرد سبق المجموع للمجموع (٢) ،

---

(١) أشار الأمير الى أن هذه الزيادات من الرابع حتى السابع استفادها من شرح المقاصد الذى اقتصر على هذه السبعة فى مبحث إبطال التسلسل من كتابه شرح المقاصد .

(٢) حاشية الشيخ محمد الأمير ص ٦٢ .

....

ورغم وجاهة هذا الوجه الا أن عليه ضرورة اثبات أمور كثيرة حتى يسلم هو من الضغط الفكرى عليه ، من ذلك اثبات الحكم، وصحة الحكم، وكونهما أمورا حقيقية أو اعتبارية ، موجودة فى الذهن، أو فى الخارج، أو فى نفسها .

مع أن التحقيق قائم على أن " الحكم بل وصحته أمور اعتبارية لاثبوت لها فى الخارج " (١) وان كان لها ثبوت فى نفس المستدل بها أو المعتبر لها ، فبطل التسلسل ، وثبت احتياج الكل الى خالق قادر هو الله تعالى .

الوجه التاسع : ضرورة اجتماع الوجود والعدم :

أما كيف . فلأنا اذا قلنا بالتسلسل ، فلاشك أن " كل فرد مسبوق بعدمه الأزلى ، وقدم السلسلة يستدعى وجود الأفراد فى الجملة أزلا ، فاجتمع فى الأزل وجود ذلك الموجود وعدمه " (٢) فى آن واحد وهو باطل لأن معناه أن تكون السلسلة موجودة فى أفرادها ولا موجودة ، ومعدومة فى أفرادها ولا معدومة ، أو يجتمع الوجود والعدم فى آن واحد فى شئ واحد ، وهو محال .

---

(١) المصدر السابق ص ٦٢
(٢) المصدر السابق ص ٦٢

الوجه العاشر : عدم وجود فراغ لانهائي :

ومؤدي هذا الوجه هو أن القول بالتسلسل يلزم عليه اثبات وجود فراغ لانهائي حتى يستوعبه ، لأن القول بلزوم فراغ مالانهاية له قول باطل " اذ أن كل شيء له بداية حتى الفراغ نفسه ، وربما يقال : أن الفراغ فيما لايزال ، وعدم النهاية من طرف الأزل ، لكن هذا القول مدفوع ، وحاصل الدفع هو " أن معنى حوادث لانهاية لها ، أنه دخل في الوجود حوادث فقد حصرها الوجود وفرغ منها متعينة ماوجدت ، فكيف تكون لانهاية لها ، هذا تناقض وتهافت" (١)، قائم على اثبات التسلسل حالة كونه معتمدا على القول بوجود فراغ مالانهاية له ، ومن ثم : فقد بطل التسلسل ، وثبت أن للكائنات نقطة ابتداء ، خلقها الله تعالى ،وهو وحده العالم بها .

الوجه الحادي عشر : ابطال التسلسل بحدوث أفراده .

ذلك أن كل فرد في السلسلة حادث ، وحيث كان كل فرد حادثا فقد كان " مجموع السلسلة حادثا قطعا ، ضرورة أنه لاوجود للكل الا بأجزائه ، ولاللجنس الا بأفراده ، فان الزمونا التسلسل في المستقبل كنعيم الجنة ، قلنا : هذا يرجع لعدم وقوف مقدورات القادر المطلق عند حد ، وماقلتم به يرجع لوجود الممكن أزلا ، وهو محال بالطبع لاتتعلق به القدرة" (٢) .

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٦٢
(٢) حاشية الأمير ص ٦٢

وهكذا انتهينا من عرضنا لوجوه أبطال التسلسل بأنواعه ، وكما أبطلنا الدور بأنواعه ، فقد أعاننا الله تعالى على اثبات أوجه بطلان التسلسل بأنواعه ، ولعلك تلاحظني قد سرت معك شوطا في المسألة ما كان أغناك عنه ، لكن ما الحيلة وقد وقعت على دُرَرٍ أخاف عليها ان لم أودعها لديك أمانة بين يديك ، تغشاها وقت حاجتك اليها ، اذ لو تركتها وأدرت عنها أنا ، ثم حاولت أنت الحصول عليها فمن أين لك بها ، وأنت احدى الكواعب الناعمة ومازال معلوماتك تمثل غادة في غصن ندى .

أتراني قد أطلت معك الحديث ، وأطلت عليك القول ، لكن ماذا أنا فاعله ، وقد وقعت بين أمانتين أخشى اضاعة لهما أو لاحداهما ، أما الأولى : فهي العلم الذي نقف على أبوابه ونحسن طلابه ، وننظر أعقابه ونفكر في ثوابه ، وحيث وجدته أمانة بين يدي فلابد من صيانتها ، واخراجها من بين السطور ، وما تحت الكلمات واقتناصها من خلف المعاني المجهدات .

وأما الثانية : فهو أنك طالب العلم ، الذي جعل الله له أجر شهيد ، وأثبت أنه من حجج الله على غيره ، وممن تقبل لهم الشفاعة كما أنهم أهل الخوف من الله والخشية له ، فهل أضيعك أنا وقد كرمك الله ، ماذا أنا فاعل يوم أن ألاقيه ويسألني عن أماناتي وعلى وما أنا صانع فيه ، تقبل عذري يا أرحم الراحمين ، وأجعلني عندك من المقبولين ، ووفقني لما فيه رضاك والخير لأمة المسلمين .

والأول بقسميه باطل لما مر ، في مرصد العلة والمعلول من الأمور العامة ، فتعين الثاني وهو المطلوب ، ولايذهب عليك أن ما ذكره تطويل ورجوع بالآخرة الى اعتبار الامكان وحده ، والاستدلال به" *

---

* قصد الشيخ اثبات أن الدور والتسلسل باطلان ، وهو القسم الأول مما سبق أن عرضه ، ويبقى القسم الثاني ، وهو انتهاء الموجودات في العالم الى مؤثر واجب الوجود لذاته ، وهو الأمر المطلوب الذى تم اثباته أثناء الحديث عن ابطال الدور والتسلسل .

ويبدو أن الشيخ الجرجاني يميل الى أن اثبات وجود الله تعالى يتم بطريق دليل الامكان ، أقرب مما يتم بالأدلة الأخرى ، لأنها تذهب بصاحبها الى جدل طويل ، وتقسيم للعالم كبير بجانب أنها في النهاية ترجع الى دليل الامكان الذى أحبه المتكلمون من المتأخرين دون أعلانهم عن هذا الحب ، أو اظهار نزعتهم نحوه ، خشية أن يقال أن المتكلمين مع الفلاسفة يتعاطفون .

وربما عبر الشيخ المرعشي عن هذا المكنون حيث قال : " البرهان على وجود واجب الوجود ، وفيه مسالك كثيرة والمشهور منها اثنان :
المسلك الأول للمتكلمين : أعلم أن العالم ، اما جوهر أو عرض ، وقد يستدل على وجود الصانع بكل واحد منهما ، اما بامكانه أو حدوثه بناء على أن علة الحاجة عند المتكلمين ، اما الحدوث وحده ، أو الامكان مع الحدوث شرطا كان الحدوث أو شطرا فهذه وجوه أربعة " (١) والملاحظ

---

(١) الشيخ المرعشي — نشر الطوالع ص ٢١٩ مكتبة العلوم المصرية ط ١ سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م

أن الشيخ المرعشي قدم الامكان على الحدوث ، مما يشير من طرف خفي الى اعتداده به في الذهن كما هو في الذكر ، فليتأمل .

ويمكن الجمع بين الاتجاهين على النحو الذي قرره الشهرستاني حين قال : " سلك المتكلمون طريقين في اثبات الصانع تعالى ، وهو الاستدلال بالحوادث على محدث صانع ، وسلك الأوائل طريقا آخر وهو الاستدلال بامكان الممكنات على مرجح لأحد طرفي الامكان " (١) .

وطبقا لهذا فمن اتجه نحو دليل الحدوث فلا شك أن لم سلفا اتبعهم فيه ، ومن سلك الامكان فما شك أنه تلألأ في ضياء فؤاده بريقه فسار معه ، ولم يتلكأ فيه ، وكلاهما يؤدي المطلوب منه ، والله أعلم .

(١) الامام الشهرستاني — نهاية الاقدام في علم الكلام ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

والمشهور : أن المتكلمين استدلوا بأحوال خصوصيات الآثـــار ، على وجود المؤثر ، فقالوا : ان الأجسام محدثة لما مر ، فكذا الاعراض فلابد لها من صانع ، ولايكون حادثا ، والا احتاج الى مؤثر آخـــر ، فيلزم الدور أو التسلسل ، أما الانتهاء الى قديم ، والأولان باطـــلان والثالث هو المطلوب. *

---

* قرر الشيخ أن المشهور من الأدلة لدى المتكلمين ، هو استدلالهم بأحوال خصوصيات الآثار ، باعتبار أن الأحوال المتبدلة تمثل أعراضـــا قائمة ـ كما أن الأعراض المنتقلة لاتخلوا عن أحوال لها تقوم فيها وتعبـر عنها، كما أنهم ـ المتكلمون ـ قد يعبرون بالأحوال عن دليل الحدوث في الأعراض على ما سبق ذكره في وجه حدوث الأعراض(١) .

على أن مسلك الحدوث ، أو دليل الحدوث عند المتكلمين قـــد انتهى الى اثبات واجب الوجود ، لكن الشيخ ههنا عرض دليل الحدوث مثبتا أولا حدوث الجواهر ، ثم قاس عليها الأعراض ، وليس العكس كمـــا أنه حاول اثبات حدوث الأجسام باعتبارها صورة العالم الجوهري العنصري ثم ينسحب الحكم على الموجودات المخلوقة غير العنصرية ، وهي طريقـــة سهلة المأخذ ، قريبة المنال .

وبعد أن أثبت حدوث الأجسام لجأ الى اثبات حدوث الأعراض على وجه الاجمال ، انتهى الى أن للأجسام والأعراض صانعا حكيما قديـــما ضرورة ، ولو كان حادثا لاحتاج الى مؤثر آخر وهلم جرا ، ويلزم بعد ذلك على القول باحتياج العالم الى مؤثر آخر أحد أمور ثلاثة هي :

---

(١) الوجه الثالث من أوجه اثبات وجود الله ، وسبقت دراسته في هـذا الكتاب فليرجع اليه من شاء .

: ....

---

١ ـ الدور : وقد ثبت بطلانه بكافة أقسامه ، عدا الدور المعي على ما سبق بيانه .

٢ ـ التسلسل : وقد ثبت بطلان التسلسل بأنواعه ، وقدمنا لذلك أحد عشر وجها .

٣ ـ الانتهاء الى قديم مؤثر ، وهو الله سبحانه وتعالى الذى خلق فسوى وقدر فهدى ، وهو المطلوب .

فثبت أن العالم كله محتاج فى وجوده الى مؤثر حكيم قديم ، له كافة صفات الجلال والكمال ، وهو الله رب العالمين .

﴿الفصل الرابع﴾

((أدلة المعتزلة على اثبات وجود اللـه تعالى))

أدلة المعتزلة على وجود الله تعالى

سلف الحديث عن قضية الاستدلال على وجود الله لدى السلف الصالح ، وكانت الاشارة أقرب ما يكون الى المراد ، ثم تحدثنا عن أدلة الماتريدية بنوع من التفصيل الذى تقتضيه ظروف الكتابة ، وهو ترتيب طبيعى .

ثم تحدثنا عن أدلة الأشاعرة ، رغم أن المعتزلة أسبق وجودا من الماتريدية والأشاعرة ، وانما الذى دفع الى ذلك هو موقف الامام الايجى من عرضه أدلة الأشاعرة أولا ، وكانت متابعته أمرا لا مفر منه من ثم كان الحديث عن أدلة المعتزلة لاحقا مجاراة للامام الايجى الذى أشار فقط الى المعتزلة لا الى أدلتهم تفصيلا ، فما هو موقف المعتزلة ؟

موقف المعتزلة من اثبات وجود الله تعالى ، لم يذكر فى هذا المقصد على سبيل الاستقلال ، ويبدو أنه جاء مطويا فى ثنايا المتكلمين حسب ما ذكرهم الامام الايجى وشارحه ، ولم أتبينه ، لذلك سأسوق موقف المعتزلة من أدلة اثبات وجود الله تعالى ، على وجه الاجمال .

لم يعول المعتزلة على الدليل النقلى ، وانما كان استدلالهم قائما على العقل وحده ، وربما يقال : لم فعلوا ذلك ؟ والجواب من وجوه

الأول : أن المعتزلة وجدوا فى وقت كانت الفتن الاسلامية على أشدها فاستخدامهم الدليل العقلى لمواجهة المجادلين أمر طبيعى ، لأنهم من غير المسلمين ، والدليل النقلى لا ينهض فى مواجهتهم ، وانما يلزمهم الدليل العقلى ولذلك تسلح المعتزلة به ، فاذا أخذنا رواية الملطى

المتوفى سنة ٣٧٧ هـ وأن المعتزلة نشأوا أيام تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ، لأنهم كانوا من أصحاب على فاعتزلوا الناس ولزموا البيت والمساجد قائلين " نشتغل بالعلم والعبادة ، فسموا بذلك معتزلة " (١) كان لنا القول بأن دفاعهم العقلى عن العقيدة كان راجعا لرغبتهم القوية فى حماية أصول الدين ، ولكن بمنهج المجادل حتى يكون أوقع فى قلبه وأقرب الى غلبته .

وكان هذا منهج متقدمى المعتزلة على أكثر تقدير ، أما منهج المتأخرين فقد اختلف كثيرا عن منهج المتقدمين ، سواء فى الموضوعات التى تم تناولها ، أو طرق المعالجة ، والباحث الجيد يدرك هذه ، وتلك كما يمكنه التمييز بينهما جميعا ، أما رجم الجميع بحجة أو أخرى ، فلا شك أن فيه نوعا من الغبن لا يرتضيه المسلم لنفسه ، باعتبار أصول دينه .

الثانى : أن اتجاه المعتزلة وان كان اتجاها عقليا ، الا أنه ليس اهمالا للنقل ، وانما هو استلهام النقل فى العقيدة والعبادة والسلوك، واستلهام العقل فى جدل المجادلين الذين لا يقرون بوجود الله ، ولا يؤمنون بدين اذن المعتزلة لم يكونوا بدعا من القول ، أو نشازا فى السلوك ، وبخاصة عند متقدميهم ، وكانوا مضطرين الى استخدام العقل .

---

(١) الدكتور / مصطفى حلمى — منهج علماء الحديث والسنة من أصول الدين علم الكلام ص ٨٤ دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع بالاسكندرية .

الثالث : اتساع الترجمة ودخول الثقافات المختلفة الى البيئة الاسلامية كل هذا ألقى عبئا على الفكر المسلم ، وكان الاتجاه العام يرشح المعتزلة الذين كانوا فرسان العقل ، وفصحاء بلاغة ، ورؤساء الفكر المنقول ، من ثم كان اتجاههم العقلى قائما على تلك المؤهلات التى سبقت ، وكانت لبنات قوية فى بناء الفكر الاسلامى الاعتزالى ، الذى قام أساسا على النقل ثم نهج منهج العقل فيما بعد ، فما هى أدلة المعتزلة على اثبات وجود الله تعالى ؟ لاشك أنه الدليل العقلى بأجزائه التى منها :

الدليل الأول : دليل الحدوث :

يقوم هذا الدليل عندهم على معرفة أنواع الدلالة ثم تقسيم العالم الى أعراض وأجسام ، فما هى أنواع الدلالة أولا ، ثم ماهى أجزاء دليل الحدوث :

أولا : أنواع الدلالة :

يقرر القاضى عبد الجبار أن : أنواع الدلالة أربعة هى :

١ — حجة العقل . ٢ — الكتاب ٣ — السنة ٤ — الاجماع .

ومعرفة الله تعالى لاتنال الا بحجة العقل ، أما لماذا لاتنال معرفة الله الا بالعقل وحده ؟ فالجواب " أن ماعداها فرع على معرفة الله تعالى بتوحيده ، وعدله ، فلو استدللنا بشئ منها على الله — تعالى والحال هذه ، كنا مستدلين بفرع للشئ على أصله ، وذلك لايجوز " (١) .

(١) القاضى — عبد الجبار بن احمد — شرح الأصول الخمسة ص ٨٨ تحقيق / د / عبد الكريم عثمان مكتبة وهبة .

....

ويكرر القاضى هذا المعنى ويردده كثيرا ، فمثلا يقول : " ان الله تعالى لايعرف ضرورة ، وكل ذات لاتعرف ضرورة ، فالطريق اليها لايعدو أحد أمرين :

أ - اما أن يكون حكما صادرا عنه .

ب - واما أن يكون " فعلا واقعا من قِبَلِه " (١) .

ونفس المعنى أكده ابن متويه (٢) حيث يقول : " التعلق فى الذوات لايخرج عن وجهين :

أ - اما أن يكون تعلق الفعل بالفاعل .

ب - واما أن يكون " تعلق العلة بالمعلول . (٣)

اذن هم يذكرون أنواع الدلالة ، ويرجحون منها حجة النقل لكن لايهملون غيرها ، انما يجعلونها فى مرتبة تالية حين الاستدلال على العقيدة مع المفكرين ، وليس مع المؤمنين .

ثانيا : أجزاء دليل الحدوث عندهم :

أ - حدوث الأعراض .

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٨٩
(٢) قام الصديق الدكتور / سعيد مراد بتقديم رسالة علمية عن ابن متويه يمكن الاستفادة منها .
(٣) ابن متويه - المجموع من المحيط جـ ١ ص ١٠١ .

....

حيث يقوم حدوث الأعراض على اثبات أولا أنها موجودة ، ثم ثانيا على اثبات أنها حادثة ، فاثبات وجودها يسبق اثبات حدوثها " ثم الانتهاء الى احتياجها لمحدث فاعل ، مخالف لنا ، وهو الله تعالى " (١) .

ب ـ حدوث الأجسام :

ويقوم على اثبات حدوث الأجسام بأحد طرق ثلاثة :

١ ـ الاستدلال بالأعراض على الله ، وصحة السمع ، ثم يستدل بالسمع على حدوث الأجسام .

٢ ـ الاستدلال بالأعراض على الله ، ونعلم قدمه تعالى ، ثم نقول: لو كانت الأجسام قديمة لكانت مثلاً لله تعالى ، لأن القدم صفة من صفات النفس ، والاشتراك في صفة من صفات النفس يوجب التماثل ولا مثل لله ، فيجب أن لاتكون الأجسام قديمة ، وانما يجب أن تكون محدثة " .

٣ ـ الاستدلال بالدلالة المعتمدة ، وهي أن " الأجسام لم تنفك من الحوادث ، ولم تتقدمها ، ومالم يخل من المحدث بتقدمه يجب أن يكون محدثا مثله " (٢) وهذا الوجه قائم على أساس اثبات الأكوان ، واثبات أنها حادثة .

---

(١) القاضي عبد الجبار ـ شرح الأصول الخمسة ص ٩٢.
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٩٤ ، ٩٥

الدليل الثاني : الاحتياج :

ومؤدى هذا الدليل قريب من دليل الامكان الذى سلف ذكره عند متكلمى الأشاعرة ، أما كيف ؟ فلأنه يقوم على افتقار الأجسام والأعراض واحتياجها الى من يخرجها من العدم الى الوجود ، وهذا المخرج هو نفسه المحدث لها ، فهى مفتقرة اليه حتى يحدثها ، وهذا الافتقار هو الاحتياج بعينه .

يقول القاضى عبد الجبار : " الأجسام والألوان وغيرها مفتقرة فى حدوثها الى محدث ما ، اذ لابد عند العلم بذلك من أن يكون له معلوم وليس بعلومه الا الله عز وجل " (١) وهذا الدليل يؤدى الى الامكان كما يؤدى الى الحدوث ، فمتى رجع لأيهما كان له فيه نصيب .

الدليل الثالث : قياس الغائب على الشاهد :

وهو يقوم على عملية المقايسة بين أفعالنا الإختيارية ، واحداثنا لها ، وكوننا فاعلين ، وهى محتاجة الينا فكذلك الأعراض والأجسام محتاجة الى الله تعالى باعتباره الفاعل لها ، يقول القاضى عبد الجبار " نعلم أولا اثبات حوادث هى أفعالنا ، ثم نعلم أنها انما كانت أفعالنا لأنا أوجدناها وأحدثناها ، ومن حيث كانت محدثة احتاجت الى فاعل ، ثم نعلم أن ذلك المحدث لايجوز أن يكون الا خالقنا وهو القديم تعالى "(٢)

(١) القاضى عبد الجبار - المحيط بالتكليف صـ ٧٥ تحقيق عمر عزمى - الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٢) القاضى عبد الجبار بن احمد - المختصر فى أصول الدين صـ ٢٠٧ ضمن رسائل العدل والتوحيد طـ دار الشروق القاهرة ١٩٨٧م .

أجل دليل قياس الغائب على الشاهد ، لم يسلم من النقودات القوية العنيفة ، سواء ذكره الأشاعرة أم استدل به المعتزلة حتى أن هذه الانتقادات التي وجهت اليه لم تبق له ركنا يعول فيه عليه ، لدرجة أن الأشاعرة أنفسهم فكروا في التنصل منه ، بعد أن وجهت اليه السهام القوية التي لم يتمكن من ترميم ما أحدثته في بناء الدليل نفسه .

وجهة نظر : اثبات وجود الله تعالى بالضرورة العقلية :

حيث تقوم الضرورة العقلية ههنا ، على أساس أن هذه الأجسام والأعراض كانت معدومة ، ثم وجدت ، وهي في ذات الوقت محتاجة اما لاستمرار عدمها ، أو لاستمرار وجودها ، أو لتجدد وجودها ، بعد أن خرجت من العدم الى الوجود ، وحينئذ تقرر الضرورة العقلية ما يلي :

أ — هذه الأجسام اما أن تكون قد أحدثت نفسها .

ب — أن يكون قد أحدثها غيرها .

لايجوز أن تكون قد أحدثت نفسها ، لأن من حق القادر على الشيء أن يكون متقدما على فعله ، فلو كان الجسم هو الذى أحدث نفسه لزم أن يكون قادرا ، وهو معدوم ، والمعدوم لايجوز أن يكون قادرا(١) ، وهذا مما تحكم ضرورة العقل بكونه مستحيلا ، اذ كيف يكون معدوما قادرا في نفس الوقت ، هذا على اعتبار أن الأجسام ربما تكون قد أحدثت نفسها

(١) شرح الأصول الخمسة ص ١١٩ .

....

أما الثانى ـ أن يكون قد أحدثها غيرها ـ فينظر الى هـــذا الغير ، فان كان مثلا لها ، عاد الأمر الى الوجه الأول وهو باطـل ، وان كان المحدث لها غيـرا مخالفا ، فلاشك أنه قد ثبت وجوده بحكـم الضرورة العقلية ، وهذا الغير المخالف للأجسام كلها ، هو اللـه رب العالمين ، فثبت أنه موجود ، وأنه قديم ، وأنه تعالى رب العالميـن اذن المعتزلة كان لهم جانب ايجابى فى اثبات وجود الله تعالى .

﴿الفصل الخامس﴾

((أدلة الحكماء على اثبات وجود الله تعالـــى))

(المسلك الثاني : للحكماء)

وهو أن في الواقع موجودا ، مع قطع النظر عن خصوصيات الموجودات وأصولها ، وهذه مقدمة تشهد بها كل فطرة ، فان كان ذلك الموجود واجبا ، فذاك هو المطلوب ، وان كان ممكنا : احتاج الى مؤثر ولابد من الانتهاء الى الواجب ، والالزم الدور أو التسلسل ، وفي هذا المسلك طرح لمؤنات كثيرة ، كانت في المسلك الأول من بيان حدوث العالم ، وامكانه ، وما يتوجه عليه من الأسئلة والأجوبة عنها فانها سقطت ههنا كما ترى *

---

* لسنا ندري مَنْ مِنَ الحكماء عناهم ، لأنا نعلم أن للفلاسفة على اثبات البارى جل علاه أدلة من أبرزها دليل الامكان الذى يقوم على تقسيم العالم الى :

١ ـ واجب .

٢ ـ ممكن .

وهنا نسوق معنى الدليل نفسه ، لأن الفطر السليمة تشهد بوجود موجود كشف عن الوجود العدم ، فصار الممكن المعدوم ، ممكنا موجودا ، ولاشك أن الذى حوّل المعدوم الى موجود لايمكن أن يكون مثلاً له ، أو أحد أجزائه . ولذلك نرى الشيخ يقرر أن هذا الموجود اذا نظر اليه بعيدا عن أحوال الموجودات ، أمكن التصديق بها باعتبارها موجودات تشهد بها الفطر السليمة ، والعقول النقية ، ويقر بها الحس الصحيح .

....

ثم يعود الشيخ لتقرير أن هذا الموجود الذى تشهد به الفطر اما أن يكون واجبا ، فيقف أمر الدليل عند هذا الحد ، وهو اثبات واجب الوجود ، وهو المطلوب ، واما أن يكون هذا الموجود فى الواقع ممكنا كبقية الممكنات فيحتاج الى مؤثر ، ويلزم الدور أو التسلسل (١) ، وكلاهما باطل ، من ثم لابد من الانتهاء الى قديم واجب الوجود ، وهو الله رب العالمين .

ثم ينبه الشيخ الى أن المسلك الثانى الخاص بالحكماء قد تفادى ملاحظات ، وتخطى حواجز كانت قائمة فى المسلك الأول : وبخاصة فى دليل حدوث العالم وامكانه ، ونظرا لأن هذا المسلك الثانى موجز ومركز فقد سقطت عنه كافة الأسئلة وتوفرت كل الأجوبة ، ثم توجه المجهود المبذول الى أمر آخر . غير أن الفلاسفة لهم على اثبات وجود الله ـ واجب الوجود ـ اكثر من دليل يحسن بنا أن نذكرها مجملة ثم نفصل بقدر ما يطيقه البحث ، واستعير عبارة الاستاذ العقاد التى يقول فيها " نحن لانحصى هنا جميع البراهين التى استدل بها الفلاسفة على وجود الله ، فانها كثيرة مشابه بعضها بعضا فى القواعد ، وان اختلف قليلا فى التفصيلات والفروع " (٢) .

---

(١) سبق الحديث عن الدور والتسلسل وأحكامهما فليرجع اليهما من شاء .

(٢) الاستاذ / عباس العقاد ـ الله كتاب فى نشأة العقيدة الالهية ص ٢٧ ط ٧ دار المعارف بمصر .

. . . .

وأبرز أدلة الفلاسفة هى :

(١) دليل الوجـــوب .

(٢) دليل العنايـــة .

(٣) دليل الاختـــراع .

(٤) دليل الامكان العـام .

(٥) دليل الامكان البحت(١)

(٦) دليل انقطاع تسلسل الأسباب .

(٧) دليل الوجوب اللاذاتى .

(٨) الدليل الغائـــى .

(٩) دليل الاخلاق أو وازع الضمير . (٢)

(١٠) دليل الاستكمال والاستقصاء .

وهناك العديد من الأدلة أتت بها المباحث الفلسفية عبــر تاريخ رحلتها التى ماتزال مستمرة فعلى سبيل المثال توجد :

(١١) البراهين الميتافيزيقية .

(١٢) البراهين الطبيعيــة .

(١٣) البراهين الأخلاقيــة . (٣)

غير أنى سألتقط بعضها لذيوعها وشهرتها ، أو لتواردها فــى مؤلفات الفلاسفة المسلمين ، ومن هذه الأدلة :

---

(١) الدكتور / محمد غلاب ـ مشكلة الألوهية ص ١٥١ وهو يصور اثبــات وجود الله تعالى عند الفارابى .

(٢) الاستاذ العقاد ـ الله كتاب في نشأة العقيدة الالهية ص ٢٠٧ .

(٣) الدكتور / محمد غلاب مشكلة الألوهية ص ٧١ بتصرف .

....

(١) دليل الوجــوب :

يتردد دليل الوجوب بين المتخصصين ، نظراً لوجود بعــض الصعوبة فيه ، بخلاف دليل الامكان ، وذلك أن دليل الوجوب قائــم على القسمة العقلية والتردد بين مانعة الجمع والخلو من ناحية ، كمــا أن فيه صورة دليل السبر والتقسيم من ناحية أخرى .

بيد أنه يلاحظ فيه اثبات التفرقة بين وجودين لموجودين أحدهما موجود لذاته ، وثانيهما موجود من غيره ، اذن يقوم الدليل على تقسـيم الوجود الى :

أ - موجود لذاتـــه .

وهو وجود الواجب جل علاه ، لأنه الحق بذاته ، الواجب الوجود من ذاته ، انه قيوم السماوات والأرضين .

ب - موجود من غير ذاته :

وهو وجود الممكن ، الذى يحتاج فى وجوده الى مرجح يرجـــح وجوده على عدمه ، ولايكون هذا المرجح الا من خارج .

يقول الشيخ الرئيس ابن سينا : " كل موجود اذا التفت اليه مـــن حيث ذاته ، من غير التفات الى غيره ، فاما أن يكون بحيث يجب لـــه الوجود فى نفسه ، أو لايكون ، فان وجب فهو الحق بذاته ، الواجـــب الوجود من ذاته ، وهو القيوم " (١) وهو القسم الأول من الدليل ، وأعنى به الموجود لذاته .

---

(١) أبو على الشيخ الرئيس ابن سينا - الاشارات والتنبيهات - القســـم الثالث ص ١٩ تحقيق المرحوم د/سليمان دنيا - دار المعارف ط ٣ .

. . . .

فاذا لم يجب له الوجود من ذاته ، بل كان وجوده من خارج ذاته ، كان ممكنا ، رغم أنه موجود ، الا أن وجوده ليس من ذاته وهو في نفس الوقت ممكن ، لأنه لايجب له الوجود ، وليس ممتنع الوجود ، من حيث أنه ممكن ، اذن دليل الوجوب لدى الفلاسفة مكنهم من اثبات وجود الله تعالى على طريقتهم التي أعلنوها في دليل الوجوب .

(٢) دليل الامكان :

يقوم دليل الامكان عند الفلاسفة على اعتبار حال الوجود ، لاحال الموجود ، فقصروا عملهم على النظر في الوجود ، وأنه واجب أو ممكن يقول الشيخ الجرجاني : مصورا مذهب الحكماء " منهم من اعتبر حال الوجود واستدل بالنظر في الوجود وأنه واجب أو ممكن على اثبات الواجب ، وهو الطريق الذى سلكه الشيخ أبو علي في كتابه الاشارات" (١) .

اذن دليل الامكان عند الفلاسفة يقوم على :

أ ـ وجود واجب .

ب ـ وجود ممكن .

وحيث أن الوجود ـ في حد ذاته ـ صفة ، وشأنها متابعة الموصوف ، فلاشك أن وجود الواجب يكون من ذاته ، فلايحتاج الى غيره بينما وجود الممكن يكون وجودا اضافيا يحتاج الى غيره ، ومتى ثبت

---

(١) الشريف الجرجاني ، حاشية الجرجاني على مطالع الأنظار صـ ٢٢٢ .

وجود واجب ، ووجود ممكن ، فقد ثبت وجود الله تعالى ، باعتبـــاره وجودا مستغنيا عن غيره ، والكل مما سواه محتاج اليه وحده .

الفرق بين امكان الفلاسفة وامكان المتكلمين :

قد يرد على الخاطر سؤال مؤداه : اذا كان المتكلمون قـــــد استدلوا — من جملة أدلتهم — بدليل الامكان ، على اثبات وجود اللـه تعالى ، وكذلك استدل الفلاسفة على وجود الله بدليل الامكان ، فمـا الفرق بينهما ، حتى نقول : ان هذا دليل امكان المتكلمين ، وهـــذا دليل امكان الفلاسفة .

والجواب من وجوه :

الأول : ان امكان المتكلمين قائم على تقسيم الموجود الى امكان الجواهر وامكان الأعراض ، بينما هو عند الفلاسفة تقسيم حال الوجود الى واجب وممكن ، والفرق كبير .

الثاني : ان امكان المتكلمين قائم على أن علته هي الحاجة التي بها يخرج الممكن من العدم الى الوجود ، والعكس ، بينما هو عند الفلاسفة قائم على مجرد الفرض الذهني الذي تمليه الضرورة العقليـــة ، ويسير في السبر والتقسيم على سبيل الانحصار .

الثالث : ان امكان المتكلمين في الجواهر قائم على تركبها ، وفي الأعراض : قائم على تحللها ، وهذا الحصر غير منضبط على وجه اليقين ، بل انه لم تسلم مقدماته من الطعن عليه ، حتى اذا أنتهى الى غايـة

كانت هى حدوث العالم ، بينما امكان الفلاسفة يبدأ من حيث
انتهى امكان المتكلمين ، اذ هو يلتقط اما الوجود ، واما الموجود
ثم يقيم امكانه فى أحدهما ، فان كان الأول فهو الامكان العام
وان كان الثانى فهو الوجوب على ما مر ذكره ، والله أعلم .

الرابع : ان امكان المتكلمين لابد أن يسبقه افتراض العدم فى الممكن
وهى مما فيه النزاع عند القائلين بامتناع الخلاء ، بينما عند الفلاسفة
لايطلب العدم ، انما يطلب الوجود من حيث هو لذاته فيكون
واجبا ، أو لغيره فيكون ممكنا .

وأنوه هنا ، الى أن هذه النتائج لاعلاقة لها بالاعتقاد من حيث هى
وانما هى تتعلق بالأدلة فقط ، ولايغربن عن ذى بال أنى لا أرجح اعتقادا
وانما أرجح أدلة ، والفرق بين ترجيح الاعتقاد وترجيح الاستدلال ظاهر
والله أعلم .

أجل . نال دليل الامكان عند الفلاسفة ذيوعا وسعة انتشار ، حتى
أنه ربما غلب أقرانه من أدلة الفلاسفة ولكن ليس معنى هذا أن جميع الأدلة
حوله انهارت أمام النقد ، وبقى هو وانما معناه أن بُعْد الصيت الذى
لحقه يماثل نفس الجو العام الذى أحاط دليل الحدوث عند المتكلمين مثم
تغلب على أقرانه غلبة اشتهار فقط ، والا فالاستعمال يجمع كل الأدلة .

لكن هناك نقطة مهمة يحسن الالتفات اليها ، وهى أن الكندى
فيلسوف العرب ، لم يستعمل الا دليل الحدوث ، مع أنه فيلسوف ، والشائع

. . . .

أن الفلاسفة استعملوا الامكان والوجوب ، ولم يستعملوا دليل الحدوث ، فلماذا صنع الكندى هذا الصنيع ؟

والجواب : ما ذكره الدكتور البهى ، من أن الكندى كان فيلسوفا فى فكره ، ولكنه كان معتزلى العقيدة ، بل كان " من قادة مذهب الاعتزال ، وله فى خدمته وخدمة الدفاع عن العقيدة مواقف مشهورة " (١) من ثم فلا عجب أن رأيناه يدافع عن العقيدة ، ويتمسك بأدلة الحدوث ، كما فعل المتقدمون من المعتزلة بجانب ما استخدموا من أدلة .

(٣) دليل العناية :

وهذا الدليل ينبنى على أصلين :

الأول : موافقة جميع الموجودات لوجود الانسان الذى هو أرقى المخلوقات المكلفة .

الثانى : أن هذه الموافقة مقصودة من قبل فاعل ضرورة .

وهذا الدليل مما نبه ابن رشد اليها ، وركز على أن الشرع الشريف قد دعا الناس لمعرفة الله تعالى من خلالها ، ولذلك تراه يقول عن الأصلين :

---

(١) الدكتور : محمد البهى - الجانب الالهى من التفكير الاسلامى ص ٣٤٨ - دار الكاتب العربى بالقاهرة سنة ١٩٦٧ م ط ٤ .

" أحدهما : أن جميع الموجودات ههنا موافقة لوجود الانسان والأصل الثاني : أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد ، اذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق " (١) .

ويدخل في هذا موافقة الليل والنهار ، والشمس والقمر ، ومافيها من منافع ، وكذلك الأجرام العلوية ، ووقف هذه المنافع على وجود الانسان ومدى استفادته منها ، مما أفاض فيه المتخصصون - قديما وحديثا - القول .

وكذلك يدخل فيه موافقة الأزمنة الأربعة ، والأرض من حيث هي كروية ومن حيث هي قشرة وتربة وما فيها من منافع ، وكثير من الحيوان والنبات ، والجماد والأمطار ، بل والرياح " كذلك موافقة أعضاء الانسان ، وأعضاء الحيوان لحياته ووجوده ، وكل هذا من دليل العناية الذي يدفع الى ضرورة الاعتقاد بوجود اله واحد له من صفات الجلال والكمال مالايشاركه فيه غيره .

(٤) دليل الاختراع :

وهو الطريق الثاني مما أدعى ابن رشد أن الشرع الشريف قد نبه اليه في الكتاب العزيز : " وهو ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء والموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والادراكات الحسية والعقل " (٢) . ويدخل

(١) ابن رشد - مناهج الأدلة في عقائد الملة ، مع مقدمة في نقد مدارس علم الكلام تقديم د / محمود قاسم ص ١٥٠ ط ٢ الانجلو المصرية ١٩٦٤م .

(٢) ابن رشد - مناهج الأدلة ص ١٥٠

. . . .

فيها وجود الحيوان كله ، ووجود النبات ، ووجود السماوات ، وهذه الطريقة تنبني على أصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس :

أحدهما : أن هذه الموجودات مخترعة .

أما الأصل الثاني : فهو أن كل مخترع فله مخترع" (١)

والملاحظ أن دليلي ابن رشد - العناية والاختراع - لايبتعدان كثيرا عن أدلة الماتريدية ومعهم الأشاعرة ، بل أنه بالرجوع الى الأصل يكون دليل السلف الصالح الكوني القرآني (٢) هو عين دليلي ابن رشد والذي اعتد به أبو الحسن الأشعري (٣) ، وجاء عند المتكلمين كوجه ثالث تحت " الاستدلال بحدوث الأعراض في الأنفس والآفاق" (٤) .

وكان قولهم هناك مبنيا على " أن حدوث هذه الأطوار لامن فاعل محال ، وكذا صدورها عن مؤثر لاشعور له ، لأنها أفعال عجز العقلاء عن ادراك الحِكَم المودعة فيها ، وأما في الآفاق كما نشاهد من أحوال الأفلاك ، والعناصر والحيوان ، والنبات والمعادن ، والاستقصاء مذكور في الكتاب المجيد ، ومشروح في التفاسير (٥) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٥١ .
(٢) راجع دليل السلف فيما سبق .
(٣) ذكرت رأيه وأنه كان يميل الى رأى السلف فليرجع اليه من شاء .
(٤) هو الوجه الثالث من مسلك المتكلمين على ما سبق الحديث عنه .
(٥) شرح المواقف - الموقف الخامس ص ٦ تحقيق د / أحمد المهدى .

....

بل ان الملاحظ هو أن الآيات القرآنية التى اعتمد عليها ابن رشد فى اثبات دليلى العناية والاختراع وبسط هذين الدليلين ـ العناية والاختراع ـ ليس التى اعتمد عليها زعماء الماتريدية ، بحيث يمكن اعتبار استخدامهم ألفاظ ، حادث ، ومحدث ، وجسم ، وعرض ، إنما هو صورة من صور التعبير عن المعانى بالألفاظ التى تؤدى نفس النتائج ، أو أنهم فرغوا هذه المصطلحات من معانيها عند اصحابها الى معان أخرى تتفق مع النقل المنزل . (١)

(٥) الدليل الغائى :

وهو يقوم على أن كافة الكائنات فيها حكمة ، وتجرى نحو غاية ، وقد كثر استخدام هذا الدليل لكن تحت مسميات عديدة ، وان كانت دلالته واحدة " فقد ورد هذا الدليل تحت عناوين مختلفة ، تدل كلها على العناية من جانب خالق معتن بما خلق ، وذلك قبل الخلق وبعده ..

" ويسمى دليل التدبير ، لأنه يدل على قوة دبرت الكون على هذا النحو الرائع المدهش ، ويسمى " دليل التظاهر " الذى يوحى بقوة عالمه وراء هذا الكون الذى يسير وفق قوانين بلغت حد الاعجاز . ويسمى " الدليل الغائى ، بمعنى خلق الكائنات على نحو يشعر بأنها تسعى الى هدف معين ، سواء فيما يتعلق بكل كائن وظاهرة على حدة ،

---

(١) لطالب المزيد مراجعة كتاب التوحيد لأبى منصور الماتريدى ، والمسايرة الكمال بن الهمام ، بلوغ المرام وغيرها من كتب الماتريدية .

. . . .

أو بالنسبة للكل بهدف أحكم وضعها منذ البداية ، مما يدل على قوة بلغت الحكمة فى الصنع والترتيب ورسم الغاية " (١) .

وأكتفى بعرض ما سبق تاركا للآخرين التفصيل الذى يرونه ، فالعلم قاسم مشترك ، والذى يرزق فيه بشئ فليحمد الله عليه ، وليعذر للآخرين فالعقول من عند الله نعمة ، وفهم العلم نعمة ، والمنعم فى الكل هـو الله رب العالمين .

سـؤال وجوابـه

قد يتبادر الى بعض الأفهام سؤال مؤداه ، لماذا لم يتحدث القرآن الكريم مباشرة على اثبات وجود الله تعالى ، ذاتا ، وصفات ، وأفعالا ، حتى يقع الالتزام من الكل ، وينال القبول من الجميع ؟ أليس ذلك أسلم وأحكم ؟ .

والجواب :

أن القرآن الكريم لم يضع وجود الله تعالى موضع الاحتمال والفرض ولا موضع الجدل والنقاش . . . والاستدلال بالآيات الكونية وغيرها لا يقصد بها نفى طرف فى قضية لها طرفان ليثبت الطرف الآخر ، وانما القصد من هذه الاستدلالات توجيه المدارك العقلية ، والمشاعر الوجدانية الى جلال سلطانه ، وعظمة تدبيره " (٢) .

(١) د / محمد مصطفى ، د / طه عبد السلام خضير ، د / محمد ربيع جوهرى — دراسات فى العقيدة الاسلامية والأخلاق ص ١٧ ط أولى ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

(٢) الاستاذ الشيخ / محمد الصادق عرجون — القرآن العظيم ص ١٤

كما أن قضية وجود الله تعالى ، لو وضعت موضع الاستدلال ، لوقعت بين القبول والرد ، ولكان اثباتها بعد الطعن على أصلهـا أمرا غاية الصعوبة ، من ثم لم تذكر فى القرآن الكريم كقضية منصوص عليها وان كانت كل الآيات القرآنية دليلا عليها ، وفرق بين النص عليهـا ، وبين فهم الدليل الموصل اليها .

ولذلك رأينا كل مفكر يستخدم امكانياته للاستدلال عليها أو التعرف فهذا ينهل من الآيات القرآنية ما يبلغه غايته ، وهذا يستشـف من الآيات الكونية ما يصل به الى معرفة الله جل علاه ، ويسمى الأول : مستدلا بالنقل ، والثاني : مستدلا بالكون .

بيد أن بعض الناس امتدت بهم ثقافاتهم ، وتنوعت معارفهم واتسعت مداركهم ، فربما استفادوا الدليلين أو الأدلة على وجود الله تعالـى ، فمنهم من سلك طريق المعامل والتجارب حتى انتهى الى معرفة اللـه واثبات وجوده ، ومنهم من سلك التاريخ يستحث ذاكرته حتى تسعفه فلما ساقت له الآيات القرآنية أخبار الماضيين ، آمن بالله رب العالمين ، وكـل يستخدم على صحة عقيدته ما تدفع اليه امكانياته ، والله أعلم .

﴿الفصل السادس﴾

((أدلة لبعض المتأخرين على اثبات وجود الله تعالى))

المسلك الثالث : لبعض المتأخريـــــن

يعنى صاحب التلويحات ، وهو أنه لا شك فى وجود ممكن : كالمركبات ، فان استند الى الواجب ابتداء ، وانتهى اليه ، فـذاك وان تسلسلت الممكنات ، قلنا : جميع الممكنات المتسلسلة الى غيـــر النهاية من حيث هو جميع ممكن ، لاحتياجه الى أجزائه ، التى هـــى غيره ، فله علة موجدة ترجح وجوده على عدمه ، لما عرفت من أن الامكان محوج ، وهى لاتكون نفس ذلك المجموع ، اذ العلة متقدمة على المعلول ويمتنع تقدم الشىء على نفسه *

---

* قصد الشيخ بعض المتأخرين ، وفهم الجرجانى أن هذا البعض يشلهم صاحب التلويحات وهو الامام السهروردى ، الذى راح يقـــدم دليلا على اثبات وجود الله تعالى ، ليس على أساس تقسيم العالم الـى جواهر وأعراض ، وانما على أساس التسليم بوجود الممكن من حيث هو ممكن.

واستخدم الأمثلة ليدلل على امكانه ، كالجواهر المركبة (١) ، فـــان كانت مستندة فى وجودها الى الواجب مباشرة ، فقد ثبت وجود الواجـب من اقصر طريق وانتهى الأمر الى هذا الحد ، هذا وجه ، يقف عنـــد استنادها الى الواجب مباشرة .

أما إن كانت مستندة الى بعضها (٢) فلاشك أنها محتاجة الـــى أجزائها ، باعتبار أن الاحتياج قاسم يضمها جميعا ، وانها لاتكون مجموعا الا اذا ضمت أجزاؤها الى بعضها ، ويعود الأمر الى الأجزاء ، فـــان

---

(١) سلف الحديث عن الجواهر وأنواعها فليرجع اليها من شاء .
(٢) على طريقة التسلسل التى ابطلناها ، فليرجع اليها من شاء .

....

كانت كذلك فلابد لها من علة موجدة ، تكون مهمتها ترجيح وجود الممكن على عدمه ، لأن طبيعة الممكن قاضـــية بذلك .

ثم ينتقل الحديث الى العلة الموجدة هذه ، فان كانت خارجة عـن الممكنات فهى الواجب وثبت المطلوب ، وان كانت آحاد الممكنات ففيــه مخالفة لبدهيات العقول ، لأن معناه ضرورة تقدم العلة على نفسها حتى توجدها ، وتأخرها عن نفسها حتى تكون مفعولا لها ، وهو محال ضرورة ، ولقربــه لا يعبأ به ، ولا يؤبــه له ، لأنه فى عداد غير العاقلين ، هذا على فرض أن العلة الموجدة هى مجموع الممكنات .

ولا جميع أجزائه لأنه عينه ، ولاتكون أيضا جزأه ، أى بعض أجزائـه ، اذ علة الكل علة لكل جزء ، وذلك لأن كل جزء ممكن محتاج الى علـة فلو لم تكن علة المجموع علة لكل واحد من الأجزاء لكان بعضها معللا بعلة أخرى ، فلا تكون تلك الأولى علة للمجموع ، بل لبعضه فقـط ، وحينئذ فيلزم أن يكون الجزء الذى هو علة المجموع ، علة لنفسـه ، ولعلله أيضا *

---

* بعد أن أبطل الشيخ كون المجموع معلولا لنفس المجموع ، راح يبطل كون المجموع معلولا لجميع أجزائه ، بمعنى كون العلة هى جميع الأجـزاء الممكنة ، لأن الجميع هو عينه ، كما لاتكون العلة بعض أجزاء المعلـول ـ جميع الممكنات ـ لأن علة الكل ، هى نفسها علة لكل جزء على أساس أن كل جزء منها ممكن محتاج ، والكل فى مجموعه كذلك ممكن محتاج .

فاذا افترضنا أن بعض الممكنات له علة ، وبعض آخر له علة أخـرى ، فمعنى هذا تعدد العلل ، ولا يكون المجموع من حيث هو مجموع معلـولا لعلة واحدة ، انما لعلتين أو أكثر ، وهذا باطل لأنه يترتب عليه :

(١) أن يكون الجزء الذى هو علة للبعض علة للمجموع أيضا .

(٢) أن يكون الجزء الذى هو علة المجموع علة ومعلولا فى وقت واحد .

(٣) أن يكون الجزء الذى هو علة المجموع علة لنفسه ، ويلزم تقدم الشىء على نفسه ، وتأخره عنها ، وقد سبق بطلان هذا .

(٤) أن يكون الجزء الذى هو علة المجموع ، علة لنفسه ولعلله أيضا علـى وجه الاجمال وهذا كله باطل فتعين أن يكون المجموع الممكن مستندا فى وجوده الى علة خارجة عن جميع العلل الممكنة ، وهو حتما يكـون

....

واجب الوجود ، الله رب العالمين .

اذن الشيخ هنا أبطل ما يلي :

(١) أن تكون علة المجموع نفسه .

(٢) أن تكون علة المجموع جزأه .

(٣) أن تكون علة المجموع أمرا داخلا فيه .

وأثبت ما يلي :

(١) كون السلسلة الممكنة محتاجة .

(٢) احتياجها لا يكون لمثلها .

(٣) أن الذى تستند اليه في وجودها ، هو أمر خارج عنهما جميعا والخارج عن جميع الممكنات واجب لذاته وهو الله سبحانه وتعالى .

واذا لم تكن علة المجموع نفسه ، ولا أمرا داخلا فيه ، فاذن هو أمر خارج عنه والخارج عن جميع الممكنات واجب لذاته ، وهو المطلوب ولابد أن يستند اليه شيء من تلك الممكنات ابتداء فتنتهي بــــه السلسلة . *

---

* قصد الشيخ هنا ما سلف ذكره من ابطال أمور واثبات أخــرى ، حتى انتهى الى المطلوب ، وهو اثبات أن الممكنات لاتستند الـــى شيء منها ، ولابد من انتهاء السلسلة الممكنة الى الواجب الوجـــود جل علاه ، وهو خارج عن جميع الممكنات بل هو الخالق لها جل علاه ، وهي تستند اليه في كل شيء .

واعترض عليه بوجوه :

الأول : المجموع يشعر بالتناهي ، لأن مالايتناهى ، ليس له كل ، ولا مجموع ، ولا جملة بل ذلك انما يتصور في المتناهي ، وتناهي الممكنات يتوقف على ثبوت الواجب ، فاثباته به ، أي اثبات الواجب بما يدل على تناهي الممكنات ، مصادرة على المطلوب *

---

* قصد الشيخ هنا ابراز الاعتراضات الواردة على مسلك المتأخرين ، وقدم أجوبة عنها فمن الاعتراضات القول بأن لفظ المجموع الذي استخدمه صاحب التلويحات فيه إشعار بتناهي الممكنات ، والدليل أن ما لايتناهى لايقال له كل ، ولا مجموع ، ولا جملة ، انما يوصف بأنه لايتناهى فقط ، وحيث استخدم صاحب التلويحات ألفاظ الجملة والمجموع ، والكل فقد قصد به التناهي ، وهم لايسلمون بأن الممكنات متناهية .

وفرق المعترض بين مفهومين .

الأول : ما لايتناهى . وبيّن أنه لايوصف بأنه كل ، أو مجموع ، أو جملة ، أو ما يفيد حصره بين حاصرين .

الثاني : ما يتناهى . وبيّن أنه الذي يمكن وصفه بأنه كل أو مجموع ، أو جملة الى غير ذلك من الأوصاف الحاصرة له ، والتي تؤدي كلها أو بعضها الى القول بتناهيه .

ثم ركز المعترض على أن اثبات تناهي الممكنات يتوقف على ثبوت الواجب واثبات الواجب بناء على تناهي الممكنات فيه دور ، كما أن فيه مصادرة على المطلوب ، وبالتالي فأمر تناهي الممكنات المعترض لايقر به ، ومن ثم راح الشيخ يصور الجواب على هذا الاعتراض .

والجواب . أن المراد به ، أى بالمجموع ، وما يراد فه فى هـذا المقام ، هو الممكنات بأسرها بحيث لايخرج عنها شئ منها ، وذلـك متصـور فى غير المتناهى ، اذ يكفيه ملاحظة واحدة اجمالية شاملة لجميع آحاده ، انما الممتنع ، أن يتصور كل واحد مما لايتناهى منفصلا ،ويطلق عليه المجموع بهذا الاعتبار *

---

* أراد الشيخ تقديم جواب على الاعتراض السابق ، يقوم هـذا الجواب على التفرقة بين مفهوم المجموع من حيث انحصاره وعدم الانحصار فأكد الشيخ أن المراد هو مجمل الممكنات بعيدا عن الألفاظ الحاصرة بمعنى المراد الممكنات عموما ، بحيث لايخرج عنها شئ منها ، وذلـك متصور فعلا فى غير المتناهى ، كما هو متصور فى المتناهى تماما بتمام .

أما كيف ؟ فلأن الممكنات منحصرة فى الممكن ، والمنحصر محـدود طالما عرفت حدوده ، فلفظ المجموع ، أو أى لفظ آخر لايعتد فيـه بخلاف ، لأن ملاحظة واحدة اجمالية على آحاد الممكن تفيد انحصار كل واحد منه فى حدوده سواء الزمانية أو المكانية ، أو الافتراضية ، وهـذا ليس بممتنع لا عقلا ، ولا عرفا — لأن كافة الممكنات ممثلة فى آحاد أفرادها وهذا نوع من الانحصار .

أما الممتنع ، فهو تصور كل واحد مما لايتناهى منفصلا ، ثم يطلـق عليه لفظ المجموع باعتبار الانفصال الذى عرضنا له ، اذن النزاع قائم فـى الاعتراض على لفظ المجموع ، والمعنى المراد فيه ، فاذا تبين لنـا أن لفظ المجموع لم تكن له دلالة واحدة عند المتنازعين حتى يتم تحرير محـل النزاع ،أدركنا أن ما فهمه المعترض ليس هو ما قصده الشيخ عند تصـوير مذهبه . فليتأمل .

الثاني : ان أردت بالمجموع كل واحد من آحاد السلسلة ، فعلته ممكن آخر متسلسلا الى غير النهاية ، بأن يكون كل واحد منها علة لما بعده ، ومعلولا لما قبله ، من غير أن ينتهى الى حد يقف عنده .

وان أردت به الكل المجموعى فلا نسلم أنه موجود ، اذ ليس ثمة هيئة اجتماعية الا بحسب الاعتبار وما جزؤه اعتبارى لايكون موجودا خارجيا *

---

* أراد الشيخ تصوير الاعتراض الثانى على المسلك الثالث فقال : لعل المعترض ينتقل الى معنى آخر من معانى مجموع الممكنات ، بحيث يقع على النحو التالى :

١ ـ أن يراد بالمجموع كل واحد من آحاد السلسلة .

وبالتالى فان المجموع من حيث هو مجموع آحاد ، لابد له من علة تستمر معه وتستمد وجودها من سلسلة الممكنات ، ويظل الأمر هكذا كل واحد من آحاد سلسلة الممكنات علته ممكن آخر الى غير النهاية ، على أن يكون كل واحد منها علة لما بعده ، ومعلولا لما قبله ، ويظل الأمر هكذا من غير أمد يقف الى حده ، أو ينتهى اليه .

٢ ـ أن يراد بالمجموع الكل المجموعى الشامل .

وفى هذه الحال يدعى الخصم أنه غير موجود فى هيئة اجتماعية تعرف بأنها الكل المجموعى الشامل من حيث هو كل أما لماذا ؟ فلأنه ليس هناك هيئة اجتماعية الا بحسب الاعتبار فقط ، لابحسب الوجود الخارجى ومن ثم . فان ما كان جزؤه اعتباريا لايكون موجودا خارجيا . ويبطل بهذا الحكم على الممكنات من حيث أنها جميع ممكن ، وبالتالى تظل مسألة تسلسل العلل والمعلولات قائمة ، ولاتقف عند حد يسمى الواجب .

. . . .

غير أن هذا الاعتراض تخالفه قواعد المنطق التى تعرّف الكل بأنه حكمنا على المجموع ، أى على جملة الأفراد من حيث كونها مجموعة بحيث لاينتقل فرد منها بالحكم ، كقولنا : كل بنى تميم يحملون الصخرة العظيمة ، أى هيئتهم المحتملة من الأفراد ، لاكل فرد منهم على حدته ومنه قول الله تعالى : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ ، فانه حكم بالحمل على الهيئة المركبة من كل من الثمانية مجتمعين ، لاعلى كل منهم باستقلاله ، (١)

وبهذا يندفع الاعتراض الثانى على لغة المنطق ، وهو الذى لجأ اليه الشيخ فيما بعد حين تمسك بأن المراد من المجموع هو الكل من غير بحث عن حقيقته ، وحسنا صنع ،

---

(١) شيخ الاسلام / حسن درويش القويسنى — شرح الشيخ القويسنى على متن السلم فى المنطق ص ١٨ ط الحلبى ١٣٧٩ هـ — ١٩٥٩م ،

والجواب : أنا نريد بالمجموع الكل من حيث هو كل ، ولاحاجة الى اعتبار الهيئة الاجتماعية ، اذ الكل ههنا عين الآحاد كما فى مجموع العشرة ، ولاشك أن الكل بهذا المعنى موجود ههنا *

---

* قصد الشيخ ههنا الجواب عن الاعتراض بأن المقصود من المجموع هو الكل من حيث هو كل بغض النظر عن أى معنى آخر ، ولاداعى لأى توابع أخرى ، بل ولاحاجة الى اعتبار الهيئة الاجتماعية ، اذ الكل ههنا المراد منه نفس آحاده ، فاذا قيل لفظ عشرة ، فليس المقصود هو لفظ المعقود ، وانما المراد هو كل واحد من أفراد العشرة ، وان عبر عنها بالمجموع ، لأن " الكل فى الحقيقة ، هو الموضوع الذى هو المجموع المحكوم عليه " (١)

ولاشك أن هذا المعنى يكفى فى الدلالة على أنه موجود ، سواء سميناه جملة الممكنات ، أو كل الممكنات ، أو الممكنات بأسرها ، أو أى لفظ آخر ، فانا نقصد أنها جميعا بأسرها محتاجة الى علة فاعلة موجدة تامة ، هى واجب الوجود ، وهو المطلوب اثباته .

---

(١) الشيخ / ابراهيم محمد الجيزاوى الباجورى ـ حاشية الباجورى على متن السلم ص ٤٢ ط الحلبى سنة ١٣٤٧ هـ .

كلمة حول الكلي وأنواعه :

الكلى يطلق باطلاقات عدة سواء فى علم المنطق ، أو فى علم التوحيد ، أو فى الفلسفة يجدر بنا أن نسجلها ههنا ، لأن الكلى هو : مالا يمنع نفس تصوره من وقوع الشركة فيه ٠

(١) الكلى الحقيقى :

مالا يمنع نفس تصوره من وقوع الشركة فيه كالانسان ، فانه كلى حقيقى يشترك فيه أفراد الانسان ، كأحمد ، محمد ، خالد ، وهبة الله ونعمة الله ، وحازم ، وبدر الدين ، ونصر الدين ، وكافة أفراد الانسان ٠

وانما سمى كليا ، لأن كلية الشىء انما هى بالنسبة الى الجزئى ، والكلى جزء الجزئى ، لأنه يتركب من كليته بالتشخص ، كما أن الجزئى منسوب الى الجزء الذى هو كليه " (١) ٠ فيكون ذلك الشىء منسوبا الى الكل ، والمنسوب الى الكل كلى ٠

(٢) الكلى الاضافى : وهو الأعم من شىء ٠

" اعلم أنا اذا قلنا أن الحيوان مثلا كلى فهنا ك أمور ثلاثة هى :

أ ـ الحيوان من حيث هو هو ٠ فرس ٠

ب ـ مفهوم الكلى من غير اشارة الى مادة من المواد ٠

جـ ـ الحيوان الكلى ، وهو المجموع المركب منهما ، أى من الحيوان ، والكلى ٠

---

(١) الشيخ الصبان ـ حاشية على شرح المسلم ص ٦٢

. . . .

والتغاير بين هذه الأمور الثلاثة ظاهر ، فان مفهوم الكلي ما لا يمنع نفس تصوره من وقوع الشركة فيه ، ومفهوم الحيوان الجسم النامي الحساس المتحرك بالارادة ، والفيصل في هذه الأمور هو معرفة قواعد علم المنطق الذي قيل فيه : " انه كالسيف الذي يمكن أن يستخدم في الحـــــرب المقدسة ، أو لقطع الطريق " (١) .

(٣) الكلي الطبيعي :

هو الموجود في طبائع الأشياء في الخارج ، وسمي طبيعيا لأنـــه موجود في الطبيعة على ما هو عليه كلفظ حيوان ، فانه كلي طبيعي ، لأنه طبيعة وحقيقة . أي ما صدق مفهوم الكلي عليه ، من حيث أنه معروضة كحيوان فيسمي كليا طبيعيا .

(٤) الكلي المنطقي :

وسمي كليا منطقيا ، لأن المنطق يبحث فيه .

وهو المفهوم الذي لا يمتنع فرض صدقه على كثيرين ، أي الذي يعرض في الذهن للمفاهيم المنتزعة من أفرادها الخارجية ، أي الحكم بالكليـــة ولأنه يبحث فيه من حيث هو أي من غير اعتبار بشيء مخصوص من ما صدقاته .

(٥) الكلي العقلي :

وسمي كليا عقليا ، لأنه لا وجود له الا في العقل

وهو : المجموع المركب من العارض والمعروض ، ويسمي كليا عقليـــا لأنه لا وجود له الا في العقل (٢) .

---

(١) فرد ريك روزنتال ـ التراث القديم في الحضارة الاسلامية تقديم وتعليق د / عبد الله حسن المسلمي ص ١٤٨ ط مكتبة سعيد رأفت .

(٢) حاشية الصبان ص ٦٢

(٦) الكلى الذاتى :

وهو الذى يدخل فى حقيقة جزئياته ، كالحيوان بالنسبة للانسان والفرس عند تعريف كل منهما ، لأنا نعرّف الانسان بأنه : حيوان ناطق ، ونعرف الفرس بأنه حيوان صاهل .

(٧) الكلى العرضى (١)

هو الذى لايدخل فى حقيقة جزئياته ، بأن لايكون جزءا منها ، أو بأن يكون خارجا ، كالضاحك بالنسبة للانسان حين نعرّفه بأنه حيوان ضاحك .

وبعد فلعل هذه النبذة العجلى ، تكون قد أخذت بيدك الى ناصية عقلك ، فأعملت فيها الجد وانتظمت طريق الجادة ، فعلمت أن أن هنالك معلومات خبئة لو اقتنصتها فربما أراحتك فى حل مسائل كثيرة ، آملا منك دعوة صالحة ، وقلبا مبتهلا الى الخالق الكريم بالدعاء .

(١) راجع التعريفات للجرجانى ص ١٦٤ ط الحلبى .
والكل فى مباحث المنطق .

الثالث : ان أردت بالعلة ـ العلة التامة ، فلم لايجوز أن تكون نفسه؟ قولك : العلة متقدمة قلنا : لانسلم ذلك في العلة التامة ، فانهـا مجموع أمور كل واحد منها مفتقـر اليه فيكون كل واحد من تلك الأمـور متقدما على المعلول ، ولايلزم من تقدم كل واحد تقدم الكل ، كما أن كل واحد من الأجزاء متقدم على الماهية ، ومجموعها ليس متقدما ، بل هو نفس الماهية ، وان أردت بها أى بالعلة : الفاعل وحده فلم لايجوز أن يكون جزأه ؟

قولك : لأنه علة لكل جزء : فيكون علة لنفسه ، ولعلله ، قلنـا : ذلك ممنوع ، ولم لايجوز أن يحصل بعض الأجزاء بلا علة ، أو بعلـة أخرى ؟ *

---

* هذا هو الاعتراض الثالث على المسلك الثالث ، وهو يقوم علـى محاولة اثبات أن الموجودات مستندة الى ذاتها ، وليست منتهية الـى واجب الوجود ، واتخذ لذلك ما يلى :

أولا : أن علة الموجودات المتسلسلة هى العلة التامة المنحصرة فى ذات السلسلة .

ثانيا : لانسلم تقدم العلة وتأخرها فى العلة التامة ، لأنها مجموعـة أمور كل واحد منها مفتقر اليه ، ولايلزم من تقدم كل واحد من أفرادهـا تقدم الكلى .

ثالثا : لانسلم أن علة كل جزء تكون علة لنفسه ولعلله حتى نقع فى مخالفة الضرورة العقلية ، فما المانع أن يحصل بعض الأجزاء بلا علة أو يحصـل بعض آخر بعلة أخرى . =

والجواب : أن المراد بالعلة : هو الفاعل المستقل بالفاعلية ، وهـو في مجموع كل جزء منه ممكن لابد أن يكون فاعلا لكل من الأجزاء ، علـــى معنى أنه لايستند شيء منها بالمفعولية الا اليه ، أو الى ماصدر عنه ، والا وقع بعض أجزائه بفاعل آخر ، لم يصدر عنه ، فاذا قطع النظر عنه ، أى عن الآخر لم تحصل الماهية المعلولة التى هى المجموع ، فلم يكن ذلك الفاعـل فاعلا مستقلا بالمعنى المذكور ، وهو خلاف المقدر .

استشعار :

فان قيل هذا الذى ذكرتموه منقوض بالمركب من الواجب والممكن ، فان مجموعهما من حيث هو مجموع لاشك أنه ممكن ، لاحتياجه الى جزئـه الذى هو غيره ، مع أن فاعله ليس فاعلا لكل واحد من أجزائه .

وأيضا لو كان فاعل الكل بالاستقلال فاعلا لكل جزء منه كذلك ، فلزم فى مركب فى أجزائه ترتب زمانى كالسرير مثلا :

أ ـ اما تقدم المعلول على علته .

ب ـ أو تخلف المعلول عن علته المستقلة ، اذ عند وجود الجزء المتقدم

ولاشك أن هذا الاعتراض كسابقيه تم تناولها فى صلب المسلك الثالث كما تم بسط القول فيها فلن نطيل فى هذا المسلك لأن كل الاعتراضات من هذا القبيل الذى تبدو فيه صفة التكرار ، ولذا سأذكر جواب المتـــن والشارح فى كل ما يتعلق بهذا المسلك على ما هو عليه اللهم الا اذا فرضت الضرورة نفسها ، ولو بوضع عناوين .

كالخشب ان وجدت العلة المستقلة للكل ، لزم الأمر الثانى ، وان لم توجد لزم الأمر الأول ، وكلاهما محال .

الجواب عن الاستشعار :

قلت : الجواب عن الأول ، وهو النقض أنا قيدناه أى الكل بما كل جزء منه ممكن ، كما مر آنفا فاندفع النقض .

فان قيل : نحن نمنع كون فاعل الكل فاعلا لكل جزء منه ، ونسنده بالمركب من الواجب والممكن ، فلا يجد يكم أخراجه بقيد الامكان .

قلنا : هذا المنع مندفع بما قررناه من الدليل على أن الفاعل المستقل للكل يجب أن يكون فاعلا لكل جزء منه اذا كانت آحاده بأسرها ممكنة .

وعن الثانى — من الاستشعار — وهو المعارضة : — نقول جوابا — أن التخلف عن العلة الفاعلية المستقلة بالمعنى الذى صورناه لايمتنع انما الممتنع هو التخلف عن العلة الفاعلية المستجمعة لجميع ما يتوقف عليه التأثير ، أعنى العلة التامة ، على أنا نقول : كيف يتجه علينا ما ذكرتم ، والمراد بقولنا : علة الكل يجب أن تكون علة لكل جزء منه أن علته أى علة الجزء لاتكون خارجة عن علة الكل ، وبذلك الذى ذكرناه من المراد يتم مقصودنا .

وهو أن علة المجموع المركب من الممكنات كلها : لايجوز أن تكون جزأه اذ يلزم حينئذ أن لاتكون علة ذلك الجزء خارجة عنه ، فهى :

أ ـ اما نفسه ، وهو محال .

ب ـ أو ما هو داخل فيه ، فينقل الكلام اليه حتى ينتهي الى ما يكون علة لنفسه .

وعلى تقدير التسلسل نقول : كل جزء فرض علة في تلك السلسلة ، فان علته أولى منه بأن تكون علة لها ، فيلزم ترجيح المرجوح ، هذا خلف ، ولك أن تتمسك في ابطال علية الجزء بهذا ابتداء .

ولا يلزم ما ذكرتم من أحد الأمرين ، اذ قد تكون علة كل جزء من الأجزاء جزء علة الكل ، بحيث يكون الكل علة الكل ، فعند وجود الجزء المتقدم توجد علته التامة ، وعند وجود الجزء المتأخر ، توجد علته التامة ، ويكون مجموع هاتين العلتين : علة تامة للكل ولا محذور فيه

نعم لو كانت العلة المستقلة للكل : عين العلة المستقلة لكل واحد من أجزائه لزم ما ذكرتموه .

(الفصل السابع)

((أدلة الايجي والشارح على اثبات وجود الله تعالى))

١ ـ وهو القائم على النظر الى وجوب الوجود له جل علاه

(المسلك الرابع : وهو ما وفقنا لاستخراجه) :

ان الموجودات لو كانت بأسرها ممكنة : أى لو لم يوجد الواجب لانحصرت الموجودات فى الممكن ، ولو انحصرت فيه لاحتاج الكل ، أى المجموع بحيث لا يشذ عنه شىء من أجزائه الممكنة الى موجد ، لكونه ممكنا مركبا من ممكنات ، مستقل فى الايجاد .*

---

* هذا المسلك بديع متى فهم مراد الشيخ منه ، لأنه يقوم على ملاحظة :

١ ـ حالة الموجودات باعتبارها كلها ممكنة .

٢ ـ حالة افتراض عدم وجود الواجب .

٣ ـ حالة عدم المعلول بالقياس الى علته .

فافترض الشيخ أن الموجودات لو كانت بأسرها ممكنة : بمعنى أنه لم يوجد واجب الوجود ، وانحصرت كل الموجودات فى الممكن فقط ، فلا شك أن هذا الممكن كله محتاج الى أجزائه التى هى مكملاته ، بحيث لا يشذ عنها شىء منها أبدا باعتبارها جميعا ممكنة .

ثم احتاج الكل الى موجد مستقل لكونه ـ الممكن ـ محتاجا الى هذا الموجد المستقل فى الايجاد له كله ، باعتبار أن الممكن مركب من ممكنات ، وفى نفس الوقت لا يكون الموجد مستندا فى ايجاد هذه الممكنات أو تركيب أجزائها الى شىء من أجزائه كموجد ، بل الى الموجد المستقل سواء كان هذا السبب صادرا عن الموجد المستقل أو كان الموجد المستقل نفسه .

. . . .

على أن هذا الموجد المستقل لكل الممكنات لابد أن ترجع اليه جميعها ، إما :

أ ـ اليه وحده ابتداء ومباشرة .

ب ـ واما بواسطة هي منه أيضا .

فاذا صح الغرض الأول واستقام في الذهن ، وهو أن الموجودات كلها ممكنة ، فقد استقام احتياجها الى موجد مستقل عنها وهو الله سبحانه وتعالى .

اما اذا افترض عدم وجود الواجب ، ففي نفس الوقت لابد من افتراض عدم وجود موجودات ، وهو مالايقول به عاقل ، اذ معناه أن العلة منعدمة فكذلك معلولها ، بينما الفطر والعقول تقر بأن الممكنات موجودة فثبت احتياجها الى موجد مستقل ، وهو الله رب العالمين .

بأن لايستند وجود شيء من أجزائه إلا اليه ، أو الى ما هو صادر عنه فيكون هو الموجد لكل واحد منها ، أما ابتداء ، أو بواسطة هي منه أيضا ، يكون ارتفاع الكل مرة ، أي بالكلية ، وذلك بأن لايوجد الكل ولا واحد من أجزائه أصلا ممتنعا بالنظر الى وجوده ، أي وجود ذلك الموجد المستقل اذ ما لايمنع جميع أنحاء العدم لايكون موجبا للوجود ، لما عرفت من أن الممكن ما لم يجب وجوده من علته لم يوجد * ويلزم من ذلك امتناع عدمه من أجلها ، بحيث لايتطرق اليه العدم أصلا بوجه من الوجوه *

---

* قصد الشيخ هنا أثبات أن علة جميع الممكنات يجب أن تكون خارجة عن الجميع ، مباينة له ، ولاعبرة بملاحظة كون ذلك الجميع متناهيا ، لأن ثبوت الواجب يستلزم التناهي ، فمتى ثبت احتياج جميع الموجودات اليه على نحو ما فقد ثبت احتياجها وتناهيها ، وهو المطلوب اثباته .

غير أن الشيخين ـ رحمهما الله ـ نظرا الى أمر وراء الممكنات ، وهو عدمها جميعا ، فكما لوحظ احتياجها الى موجد لها حتى توجد ، فقد قرراهنا مالو كان ارتفاعها كلها بالكلية الى دائرة العدم سواء كان الارتفاع كلية أو ارتفاع بعض أجزائه ، ولايكون ذلك أمرا ممتنعا فيها لأن طبيعة الممكن تقبل الوجود والعدم .

وحيث أن الممكن لايمتنع من العدم فقد ثبت أنه ليس بواجب ، وما ليس بواجب يحتاج حتما الى موجد مستقل يدفع عنه العدم وينقله الى دائرة الوجود ، لأن ما لايمنع جميع انحاء العدم لايكون موجبا للوجود ، وانما يكون ممكنا ، كما أن الممكن مالم يجب وجوده من علته لم يوجد .

....

* امتناع العدم على الموجود الممكن كامتناع الوجود تماما بتمام ، من حيث أنه قابل لهما ، فمتى ثبت وجوده من علته الموجدة ، فقد امتنع عدمه من أجلها ، سواء كان عدما كليا ، أو عدما جزئيا ، أما لماذا ؟ فلأن العلة الموجدة تحمل معه العناية والاختراع ، وتحافظ على وجوده بما فيه منافعه ويعنون عليه ذلك الوجود ، بل وتمنع من تطرق العدم اليه على أى نحو كان .

لأن وجوه العدم كثيرة ، منها فساد مبنى الممكن ، ومنها فقدان منافعه ، ومنها الاخلال بالغاية الموجودة فيه ، وهذه أجزاء عدمية بحيث يصح القول بأنها وجه من وجوه العدم الجزئى ، أما العدم الكلى ففيه اطاحة بالموجود كله الى دائرة الفناء ، وهو المراد بالعدم الكلى الشامل .

كما أن العدم أقسام بجانب أنه وجوه - فمن أقسامه

(١) عدم المخلوقات الأزلى - الماضى

ولا تتعلق به القدرة والارادة اتفاقا ، لأنه ليس ممكنا ، بل واجب العدم .

(٢) عدم المخلوقات فيما يزال

ويعنون به عدم المخلوقات فيما يزال قبل وجودها ، فان القدرة والارادة يتعلقان به بمعنى أنه فى قبضتهما ان شاءتا أبقتاه وان شاءتا أزالتاه ، وجعلتا الوجود مكانه .

---

(٣) عدم المخلوقات بعد وجودها في المستقبل

ويعنون به عدم المخلوقات بعد وجودها فيما يأتي من مستقبل الأيام ، فان القدرة والارادة يتعلقان به .

(٤) عدم الممكنات التي علم الله أنها لاتوجد .

كايمان أبي جهل ، فان القدرة والارادة يتعلقان به بالنظر الى ذاته (١) .

---

(١) شيخ الاسلام عبدالله الشرقاوي ـ حاشية الشرقاوي على شرح الهدهدي ص ٦٥ بتصرف يسير .

ولاشك أن عدم المجموع يكون على أنحاء شتى : فانه قد يعدم بعدم هذا الجزء ، وبعدم جزء آخر ، وهكذا فالموجد المستقل الكل يجب أن يكون بحيث يمتنع بسببه جميع العدمات المنسوبة الى أجزائه والشيء الذى اذا فرض عدم جميع الأجزاء ، أى عدم أى واحد منهما كان ذلك العدم ممتنعا نظرا الى وجوده يكون خارجا عن المجموع لانفسه ، ولاداخلا فيه ، لأن عدم شيء منهما ليس ممتنعا نظرا الى ذاته ، والاكان واجبا لذاته ، فيكون ذلك الخارج عن جميع الممكنات واجبا وجوده فى حد ذاته ، اذ لاموجود فى الخارج سوى الممكن والواجب وهو المطلوب *

---

* قصد الشيخ ابانة عدم المجموع ، وأنه يكون على أنحاء كثيرة منها
أ — عدم هذا الجزء بعينه الذى نحلله نحن ونشاهده .
ب — عدم جزء آخر لانحلله ولكنه مقدر فى الأذهان ، كما هو موجود فى الاعيان .

ثم وقف الشيخ عند نقطة هامة تكشف عن صفات الموجد المستقل وأهمها أنها تمتنع بسببه جميع العدمات من الوصول الى الممكن وكذلك من صفاته استمرار المحافظة على الكل الموجود بما يصونه .

كما أن هذا الموجد المستقل لايكون الا :

أ — خارجا عن مجموع الممكنات .

ب — مباينا لها جميعا من كافة الوجوه .

جـ — أن ذلك الخارج عنها المباين لها يكون واجب الوجود فى حد ذاته .

فان قلت : ثبوت الواجب على تقدير انحصار الموجودات فى الممكن يكون خُلفًا لازما على تقدير نقيض المطلوب ، لامطلوبا ، كأنه قيل ، ان لم يكن الواجب موجودا لزم انحصار الموجود فى الممكنات ، ويلزم من وجود هذا الانحصار عدمه ، فيكون محالا ، فيبطل نقيض المطلوب فتظهر حقيقته :

قلت : نعم لكن الخلف اللازم قد يكون عين المطلوب ، ولذلك يقال هذا خلف ومع ذلك فهو مطلوبنا .

وهذا المسلك غير محتاج الى ابطال الدور التسلسل ، ومستخرج من ملاحظة حال عدم المعلول بالقياس الى علته ، كما أن المسلك السابق لوحظ فيه حال وجوده مقيسا اليها *

ثم انتهى الى أن الموجود اثنان لاثالث لهما وهما :

١ — الممكن وقد ثبت احتياجه ، وان له موجدا .

٢ — الواجب وقد ثبت وجوده ، واستغناؤه واحتياج الكل اليه .

وهو المطلوب ، ولو كان هناك شىء ثالث لكشف عنه البحث ، أما وأنه لم يكشف عنه ، فقد قرأنه لايوجد الا الممكن والواجب بأحكامهما التى سلف ذكر بعضها .

* هنا مجرد افتراض سؤال : يقوم على أن اثبات الواجب بانحصار الموجودات فى الممكن والواجب ، واثبات احتياج الممكن الى الواجب

. . . .

فيه خلف (١) لازم على تقدير نقيض المطلوب ، ومعناه : إن لم يكن الواجب موجودا انحصرت الموجودات في الممكن وحده ، حتى يلزم المحال .

فأجاب بأن الخلف اللازم هنا هو عين المطلوب ، وبالتالي يبطل انحصار الموجودات في الممكن وحده ، ويلزم اثبات وجود واجب الوجود ، وهو عين المطلوب .

---

(١) الخلف هو اثبات الشيء بابطال نقيضه ، ويعرف عند رجال القانون بمفهوم المخالفة فمثلا تقول أنت الآن رجل صالح ، فان المخالفة يعني أنك قبل الآن لم تكن صالحا .

﴿الفصل الثامن﴾

٢ ــ أدلة اثبات وجود الله تعالى بناء على امتناع العدم عليه جل عـــــلاه

مع تحـــيات محمد كمال حسنين

للنسخ والطباعـة ــ بالزقازيق شـــــــرقية

ت : ٠٥٥/٢٣٢٣٨٠٩

(المسلك الخامس : وهو قريب مما قبله)

لو لم يوجد واجب لذاته ، لم يوجد واجب لغيره ، أى ممكن ، وحينئذ ، فيلزم أن لايوجد موجود أصلا ، ضرورة انحصار الموجود فى الواجب والممكن .

أما الأول : وهو أنه اذا لم يوجد واجب ، لم يوجد ممكن ، فلأن الواجب اذا لم يوجد كانت الموجودات بأسرها ممكنة ولا شك أن ارتفاع الجميع المركب من الممكنات فقط مرة ، أى بالكلية لايكون على ذلك التقدير ممتنعا لا بالذات ، وهو ظاهر لأنه وآحاده برمتها ممكنة ، ولا بالغير لما عرفت من أن الغير الذى يمتنع به رفع الجميع بالمرة لابد أن يكون موجودا خارجا عنه ، واجبا لذاته ، والمفروض عدمه .

وأما الثانى : وهو أنه اذا لم يوجد واجب بذاته ولابغيره ، لم يوجد موجود أصلا ، فلأن مالم يجب ، أما بالذات ، واما بالغير لايوجد كما تقدم من أن الموجود اما :

١ — واجب مسبوق وجوده بوجوبه الذاتى . واما

٢ — ممكن : مسبوق وجوده بوجوبه من علته .

وهذا المسلك : كالرابع فى الاستغناء عن حديث الدور والتسلسل ، وقربه منه مكشوف لا مسترة به" (١)

---

(١) وقربه منه مكشوف فان الرابع : ناظر الى وجوب الوجود ، والخامس: ناظر الى امتناع العدم : وهما متقاربان ، المواقف الخامس فى الالهيات تحقيق د / احمد المهدى ص ١٥ .

(المسلك السادس : ما أشار اليه بعض الفضلاء)

وتحريره : أن الممكن لايستقل بنفسه فى وجوده ، وهو ظاهر ، ولا فى ايجاده لغيره ، لأن مرتبة الايجاد بعد مرتبة الوجود ، فان الشئ مالم يوجَد ، لم يوجِد ، فلو انحصر الموجود فى الممكن ، لزم أن لايوجَد شئ أصلا ، لأن الممكن وان كان متعددا لايستقل بوجود ولا ايجاد ، واذ لاوجود ولا ايجاد ، فلاموجود لابذاته ، ولابغيره وهذا المسلك أخصر المسالك وأظهرها .

وقد ذكر ههنا أى فى مقام اثبات الصانع شبهات كثيرة ، أوردها الامام الرازى فى كتبه ، وأجاب عنها ، لكن حاصلها عائد الى أمر واحد وهو أن يوجد ههنا وفى كل مسالة تراد مذهبان متقابلان ، فيردد بينهما ترديدا مانعا من الخلو ، ثم يبطل كل واحد منهما بدليل الآخر ، ليلزم نفى القدر المشترك .

وحلها اجمالا : هو القدح فى دليل الطرف الضعيف من المذهبين ، أو فى دليلهما ان أمكن ، ولااستبعاد فى امكان القدح فى دليلهما معا ، اذ قد يكون دليل الطرفين ضعيفا ، ولايلزم من بطلان دليلهما بطلانهما ، حتى يلزم ارتفاع المتقابلين ، وذلك لأن : الدليل ملزوم المدلول ، وانتفاء الملزوم لايستلزم انتفاء لازمه .

ولنذكر منها ، أى من تلك الشبه مع اجوبتها عدة ، لتطلع بها على أحوال نظائرها .

الأولى : لو كان الواجب موجودا ، لكان وجوده : اما نفس ماهيته أو زائدا عليها ، اذ لامجال لكونه جزءا منها .

والأول باطل ، لأن الوجود مشترك كما مر ، والماهية غير مشتركة .

والثاني : باطل : والا كان وجوده معلول ماهيته ، لامتناع كونه معلولا لغيرها فتقدم ماهيته عليه ، أي على وجوده بالوجود ، وهو محال كما سلف .

والجواب : وجوده نفسه ، ونمنع الاشتراك في الوجود الذي هو عينه بل المشترك هو الوجود بمعنى الكون في الأعيان : أعني مفهوم الوجود العارض للموجودات الخارجية ، وأما ماصدق عليه الوجود فلا اشتراك فيه ، وذلك كالماهية والتشخص ، أو وجوده غيره ، أي زائد عليه ، ومعلول لماهيته ، وتقدم الماهية عليه ليس بالوجود كما تقدم .

الثانية : من تلك الشبه ، لو كان الواجب موجودا لكان اما مختارا أو موجبا ، والأول باطل لأن العالم قديم بدليله ، والقديم لا يستند الى المختار ، والثاني باطل : والا لزم قدم الحادث اليومي أو التسلسل ، وكلاهما محال .

والجواب : لانسلم أن العالم قديم ، وقد مر ضعف دلالته .

الثالثة : منها - أي من الشبه - لو كان الواجب موجودا لكان اما عالما بالجزئيات أو لا ، والأول - علمه بالجزئيات - باطل ، والا لزم التغير فيه ، أي في ذات الواجب تعالى ، لتغير المعلوم الجزئي من حال الى حال ، فان زيدا مثلا يتصف تارة بالقيام ، وأخرى بعدمه والعلم لابد فيه من أن يطابق معلومه ، فيتغير أيضا بحسبه ، فلايكون

الواجب على هذا التقدير واجبا ، بل حادثا ، لأن محل الحوادث حادث .

والثاني : عدم علمه بالجزئيات ـ باطل : لأنا نعلم بالبديهة ، أن هذه الأفعال المتقنة المشاهدة في الجزئيات ، لاتستند الى عديم العلم .

والجواب : نختار أنه عالم بالجزئيات ، والتغير اللازم في العلم انما هو في الاضافات لافي الذات ، أي لافي صفاته الحقيقية ، فان علمه تعالى صفة واحدة حقيقية قائمة بذاته ، ومتعلقة بالمعلومات كلها ، فاذا تغيرت لم تتغير تلك الصفة ، بل تغيرت تعلقاته بها ، واضافاته اليها ، فيكون تغيرا في أمور اعتبارية ، لافي صفات حقيقية ، وانه جائز في الواجب كما سيأتي .

ولنقتصر على هذا القدر ، فان هذا منشأ للشبهات التي طول بها الكتب ، وعد ذلك التطويل تبحرا في العلوم ، وتوسعا في التحقيق والتدقيق ، وعليك بعد الاهتداء اليه بما نبهناك به من الضابطة والأمثلة ان توفر من أمثاله الأباطيل جمع بصير .

خاتمة للمقصد الأول :

لما ثبت أن الصانع تعالى واجب وجوده ، وممتنع عدمه ، فقد ثبت أنه أزلي أبدي ولاحاجة الى جعله مسألة برأسها .

قال الامام الرازى فى الأربعين كلاما محصله : انه لما ثبت انتهاء الموجودات الى واجب الوجود لذاته ، والعدم على الواجب ممتنع لزم كونه تعالى أزليا أبديا ، فلاحاجة الى جعله مسألة على حدة ، لكن المتكلمين لمّا لم يسلكوا تلك الطريقة ، بل أثبتوا أن هذه الممكنات المحسوسة محتاجة الى موجود سواها ، احتاجوا فى ذلك الى وجوه أخرى ، فقالوا : مثلا لو لم يكن أزليا ، لكان محدثا محتاجا الى محدث آخر ، وتسلسل ، ولو لم يكن باقيا دائما ، لكان عدمه بعد وجود ،

أ — اما لذاته وهو باطل .

ب — واما بفاعل ، وهو أيضا محال ، لأن العدم نفى محض ، فيمتنع كونه بالفاعل .

جـ — واما بطريان ضد : وأنه مستحيل ، لأن القديم أقوى الضد به أولى من انعدامه بالضد .

د — واما بزوال شرط ، وهو ممتنع لأن المحدث لايكون شرطا للقديم وان فرض له شرط قديم ، نقلنا الكلام اليه ، ولزم التسلسل .

ولما بطلت الأقسام كلها ، امتنع طريان العدم على الصانع ، والمصنف صرح بأول كلامه ، ثم أشار الى آخره بقوله : والمتكلمون انما احتجوا بوجوه أخر عليه ، أى على كون الصانع أزليا أبديا ، قبل اثبات ذلك ، أى قبل اثبات كونه واجبا ، وعنه أى عن الاحتجاج بتلك الوجوه . على هذا المطلوب بعد بيان كونه واجبا ، غنى : فلانطول به الكتاب ، كما طول به الامام كتابه* على ما أشرنا اليه *

---

* قصد به الامام فخر الدين الرازى ، وكتابه الأربعين فى أصول الدين ، وتم تحقيقه عدة مرات ونشرته مكتبة الكليات الأزهرية .

* سلك الشيخان طريقا منضبطا بحيث وصل بهما فى النهاية الى أن العدم يلحق الممكن ولايلحق الواجب وهذا فى حد ذاته من الأدلة القوية على اثبات وجود الله تعالى لأنه الواجب الثابت الذى لايلحقه العدم بوجه من الوجوه .

وحيث أن الأقسام التى سلف بيانها قد ثبت بطلانها ، فقد امتنع حدوث العدم على الله تعالى — الصانع — وفى هذا كفاية لمن أراد الاكتفاء ، وفيه باب موصل الى منافذ كثيرة لمن أراد الاسترسال فى المسألة .

غير أن الشيخ ذكر موقفا من مواقف المتكلمين يتعلق باثبات صفات لله عز وجل ، بعد أن ثبت وجوب وجوده ، منها أنه تعالى :

(١) أزلى : لا أول له .

(٢) أبدى : لا آخر له .

....

وكذلك سائر صفاته ، ولكن المصنف ـ رحمه الله ـ أشار الى أن اثبات كونه تعالى واجبا تأخر عن اثبات كونه تعالى أزليا أبديا وما دام قد ثبت أنه تعالى أزلى بمعنى لا أول له ، وأنه أبدى بمعنى لا آخر له ، فقد ثبت وجوب وجوده جل علاه .

وبهذا يكون قد انتهى المقصد الأول فى اثبات الصانع ، من المرصد الأول فى الذات ، من الموقف الخامس فى الالهيات ، حيث يمكننا الانتقال الى المقصد الثانى ، فى أن ذاته تعالى مخالفة لسائر الذوات .

القصد الثاني

عرض الآراء في اثبات المماثلة أو عدمها

(الفصل الأول)

((نفي المماثلة))

(المقصـــد الثاني) *

* الغرض من هذا المقصد هو عرض الآراء التي طرحها المتكلمون في مسألة مماثلة ذات الله تعالى لغيرها من الذوات ، أو مغايرتها لها ، أعني عدم المماثلة ، كما أنه بعد عرض الآراء يتم هدم الرأي الـــذي لا يستقيم منها ، والابقاء على الآخر الذي ترجحه الأدلة النقليـــة ولا يتعارض مع أصل سمعي .

والمعروض هنا أمور منها :

١ - اثبات أنه تعالى ذات لا كالذوات .

٢ - ان ذاته تعالى لها من صفات الكمال والجلال أعلاها .

٣ - أن ذات الله تعالى من حيث الحقيقة والكنه لا يعلمها الا هو جل علاه ، يقول الامام الغزالي : رحمه الله - " لا يعرف الله سبحانه وتعالى كنه معرفته الا الله تعالى " (١)

٤ - ان ذات الله تدرك بآثارها ، لا من حيث الحقيقة الذاتية "وقـــد حجب - الله - الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياتـــه ، والقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه ، ينظر اليه المؤمنون بالأبصار في الآخرة ، من غير احاطة ، ولا ادراك نهاية " (٢)

٥ - رغم أن الذات الأقدس معرفتة بالعقل ممكنة ، الا أن هذه المعرفة لا تجاوز فهم الآثار المنبثة في الكون دالة عليه سبحانه وتعالـــى ،

(١) الامام الغزالي - إلجام العوام عن علم الكلام ص ٩٤

(٢) الامام الفخر الرازي عجائب القرآن ص ١٤٤ تحقيق عبد القادر أحمد عطا دار الكتب الاسلامية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

أما أن يدرك العقل ذات الله على حقيقتها فذلك محـــــال

أما لماذا ؟

فلأن الله تعالى غير متناه ، والعقل متناه ، فهل يمكن للمتناهى وهو العقل أن يعرف حقيقة اللامتناهى وهو الله سبحانه وتعالى ؟

يقول الامام الفخر الرازى : " الله سبحانه وتعالى غير متناه فــى الذات والصفات ، والعقل متناه فى الذات والصفات والمتناهـــى — العقل — لاسبيل له الى ادراك غير المتناهى ، وهذه هـــى النكتة المستحسنة " (١)

٦ — أن ذات الله أزلية ، وكذلك صفاته تعالى ، ومع هذا فان صفاته تعالى ليست متغايرة فى نفسها ، يقول الامام الباقلانـــــى : " صفات ذاته — تعالى قديمة أزلية ، ولم يزل موصوفا بهــــا ، ولايزال كذلك ، ولاتشبه بصفات المخلوقين ، ولايقال أنهـــــا هو ولاغيره ، ولاصفاته متغايرة فى أنفسها (٢) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٦ .

(٢) الامام الباقلانى — الانصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به ص ٣٨ بتصرف يسير تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى طبعـــة ٢ الخانجى ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٣ م .

. . . .

٧ - أن ذات البارى حقيقة ثابتة ، أما صفاته تعالى ، فما هى الا معان أزلية " قائمة بذاته تعالى (١) ، وهى فى ذات الوقت ثابتة له تعالى وتعلقها بالذات قائم على نفس المعنى ، من حيث الأزلية والدوام .

٨ - أن ذات الله تعالى ، مخالفة لكل مخلوق " من أنس وجن وملك وغيرها ، فلايصح اتصافه تعالى بأوصاف الحوادث ، من مشى وقعود وجوارح ، فهو تعالى منزه عن الجوارح ، من فم وعين وأذن وغيرها ، فكل ما خطر ببالك من طول وعرض ، وقصر وسمن فالله تعالى بخلافه تنزه الله عن كل أوصاف الخلق " (٢) .

كما أن هذا المقصد الثانى ، عرض موقف الفريقين من المسألة ، ولئن كان عرضا مبسطا فيه الكثير من النتائج التى تم استخلاصها ، الا أنه أعطى مساحة كبيرة لمن يريد اعادة النظر فى المسألة فمثلا :

١ - عرض موقف نفاة الأحوال .

٢ - عرض موقف مثبتى الأحوال .

٣ - عرض موقف قدماء المتكلمين .

٤ - حجم الشبه التى يعترض بها على المذهب الحق ، ثم كرّ عليها بعد أن جمعها .

---

(١) الامام الشهرستانى - نهاية الاقدام فى علم الكلام ص ١٨١

(٢) الشيخ / محمد بن الشافعى الفضالى - كفاية العوام فيما يجب عليهم من علم الكلام ص ٣٦ ، ٣٧ هامش تحقيق المقام .

. . . .

---

٥ — دافع عن كل من الفارابى وابن سينا ومن معهما ، فى الزعم عليهم بأنهم قالوا : ان ذاته تعالى ، وجوده المشترك بين جميع الموجودات ، ويمتاز عن غيره بقيد سلبى ، ثم قال : ولم يتحقق عندى هذا النقل عنهم ، بل قد صرح الفارابى وابن سينا بخلافة فانهما قالا الوجود المشترك الذى هو الكون فى الأعيان زائد على ما هيته تعالى بالضرورة ، وانما هو مقارن لوجود خاص هو المبحث.

وبهذا ننتهى من عرض موجز للمقصد الثانى ، فهيا ننتقل الى المصنف والشارح فى عرضهما محتويات المقصد ، والآراء المطروحة فيه والتعليقات عليه .

... فى أن ذاته تعالى مخالفة لسائر الذوات

اليه ذهب نفاة الأحوال : قالوا : والمخالفة بينه وبينها لذاته المخصوصة ، لا لأمر زائد عليه ، وهو مذهب الشيخ الأشعرى ، وأبى الحسين البصرى ، فانهما قالا : المخالفة بين كل موجود من الموجودات ، انما هى بالذات ، وليس بالحقائق اشتراك الا فى الأسماء والأحكام دون الأجزاء المقومة * وعلى هذا فهو منزه عن المثل المشارك فى تمام الماهية ، والضد الذى هو المثل المنافى ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا *

---

* القصد هنا بيان أنه تعالى ذات ، وأنها مخالفة لسائر الذوات ، والمخالفة خصوصية من خصوصيات ذاته تعالى ، وليست الخصوصية أمر زائد على الذات الالهية ، وانما هى من ضروريات ذاته ومن ثم بدا لنا فريقان :

الفريق الأول : نفاة الأحوال :

الذين قالوا : ان المخالفة بين ذات الله ، والذوات الأخرى ، خصوصية من خصوصيات الذات ، ونفس هذا الرأى يمثل مذهب الأشعرى وأبى الحسين البصرى الذين مالا الى القول : بأن المخالفة بين كل موجودين ، أى بين شخصين ، لأنه لاتوجد بين أفراد الانسان عندهم حقيقة مشتركة ، ومتى سلم بأن الشيخ الأشعرى قال " ان وجود كل شئ عين حقيقته مع نفيه الوجود المطلق " (١) .

(١) د / احمد المهدى — شرح المواقف — الموقف الخامس ص ٢١
وقد دارت تعريفات القوم للحال على نواح شتى أبرزها أن الحال هو :
أ — الواسطة بين الموجود والمعدوم .
ب — الحال صفة لموجود غير متصفة بالوجود ولا بالعدم — الامام الجوينى الارشاد ص ٨٠ =

. . . .

كما أن هذا الفريق يميل الى القول : بأنه لاتوجد حقائق مشتركة الا فى الأسماء والأحكام أما الأجزاء المقومة فلا اشتراك فيها ، ومن هذا الباب استطاع نفاة الأحوال تنزيه الذات البارى عن :

١ - المثل المشارك فى تمام الماهية ، من حيث انها تمام الماهية .

٢ - الند الذى هو المثل المنادى ، أى المعادى حيث أن مفهوم الند المعادى هو الشريك الناهض للآخر ، ومن ثم تنزه الله تعالى عن المثل المشارك له فى الألوهية ، والند المعادى له فى الخلق والايجاد .

على أن نفاة الأحوال وان قنعوا بتنزيه البارى جل علاه ، عن المثل المشارك فى تمام الماهية ، وكذلك الند المعادى فى صفات الالهية ، فان هذا لايمنع من عرض رأى الفريق الثانى وهم مثبتة الأحوال (١) على ما سيأتى بيانه .

= جـ - ان الحال يصعب تقديم تعريف له بالحد والرسم ، بالحد لأنه يقوم على الذاتيات ، والحال ليس له حد حقيقى حتى يعرف به .

د - ان الحال يمكن تعريفه بالرسم والخاصة حيث يكشف عن وظيفة الحال وصفة من صفاته ، تراجع كتب الكلام فى المسألة .

(١) مثبتة الأحوال ، ونفاة الأحوال : فريقان لكل منهما توجه فكرى واتجاه سائد فى الفكر الاسلامى وأول المسائل التى وقعت تلك التى كانت فى :

أ - تعريف الحال   ب - وجود الحال من عدمه .

جـ - الغرض عند المثبتة والنفاة .

د - النتائج المترتبة على هذا الخلاف .

وقال قدماء المتكلمين : ذاته تعالى مماثلة لسائر الذوات في الذاتية والحقيقة ، وانما تمتاز عن سائر الذوات بأحوال أربعة : الوجوب ، والحياة ، والعلم التام ، والقدرة التامة .

أى الواجبية ، والحيية ، والعالمية ، والقادرية التامتين ، هذا عند أبى على الجبائى ، وأما عند أبى هاشم فانه يمتاز عما عداه من الذوات بحالة خامسة هى الموجبة لهذه الأربعة نسميها الالهية .

قالوا : ولايرد علينا قوله تعالى : " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " * لأن المماثلة المنفية ههنا هى المشاركة فى أخص صفات النفس ، دون المشاركة فى الذات والحقيقة *

---

* سورة الشورى الآية رقم ١١
* هنا جاء دور

<u>الفريق الثانى : مثبتو الأحوال :</u>

الذين يرون وجود نوع من المماثلة بين الذات الالهية وبين سائر الذوات الأخرى لكن ليست مماثلة مطلقة ، أو على كافة الانحاء ، وانما هى مماثلة فى أمرين هما :

أ — المماثلة فى الذاتية :

ويعنون بها أن ذات الله يطلق عليها ذات ، وكذلك كل ذات ، فانها من حيث هى ذات يقع فيها المماثلة ، وهى لاتعدو أن تكون مماثلة فى اطلاق اسم الذات على الجميع .

ب — المماثلة فى الحقيقة

ويعنون بها الحقيقة اللغوية ، ذلك لأن الأصل فى الكلام الحقيقة

....

فاذا قيل مماثلة فى الذات فقد قصد الذاتية والحقيقة ، وهذا عند مثبتة الأحوال لاشىء فيه .

غير أن مثبتة الأحوال لجأوا الى تفرقة حاسمة بين الذات الالهيــة وغيرها من الذوات من حيث أن الذات الالهية تمتاز عن غيرها بأحــوال أربعة هى :

(١) الوجوب . أى الواجبيــة .

(٢) الحياة . أى الحييــة .

(٣) العلم التام . أى العالمية التامة .

(٤) القدرة التامة أى القادرية التامة .

وهذه الامتيازات محل قبول من الجبّائى وأبى هاشم ، لكن أبــو هاشم يزيد على ما سبق حالة أخرى تمتاز بها الذات الالهية عن غيرهـا من الذوات يسميها :

(٥) الالهيــة .

وهذه الصفة الخامسة ، أو الحال الخامس التى اضافها أبو هاشم تعتبر صمام الأمان فى كل الأحوال لأنها الموجبة لهذه الأربعة ، ولذلك خصها أبو هاشم بوصف الالهية .

لكن ربما عرض لهم ايراد مؤداه أن الله تعالى نفى المثلية عن نفســه من كافة الوجوه فكيف وقعتم فى قبول المماثلة ؟ وذلك من مثل قوله تعالى " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " ؟ اجابوا بأن المماثلة أنواع :

....

---

(١) مماثلة فى الذات والحقيقة ، وهى لانفهمها ، ولايرد عليهما الاعتراض .

(٢) مماثلة فى أخص صفات النفس دون المشاركة فى الذات والحقيقة وهى المقصودة بالنفس فى الآية ، وهم يقرون بنفيها عن الله ، وبالتالى فهم قد فهموا فى الآية فيما يقوم على الخصوص وليس على العموم والاطلاق ، حتى ما كان على جهة الورود فى الآية القرآنية الكريمة .

فان قيل : المذكور فى الموقف الثانى الموجودية ، بدل الوجوب وهو الموافق لما فى المحصل والأربعين .

أجيب : بأن الوجود عند مثبتى الأحوال : مشترك بين الموجودات كلها ، فلا يتصور كونه مميزا ، فالمراد بالموجودية المميزة : هو الموجودية المقيدة بالواجبة ، فيرجع التمييز بالحقيقة الى القيد ، وتندفع المنافاة بين الكلاميين *

---

* هنا تصوير اعتراض يقوم على مراجعة الأحوال الأربعة التى تتميز بها الذات الالهية عن غيرها من الذوات ، وان المذكور فى الموقف الثانى هو لفظ الموجودية ، بينما المذكور هنا هو لفظ الوجوب ، والفرق بين الوجوب والوجود كبير ، لأن الوجوب حكم بينما الوجود وصف .

أجاب مثبتو الأحوال بأن الوجود مشترك عندنا بين الموجودات كلها ، من حيث أنه وصف عام فكل موجود يوصف بالوجود ، وبالتالى فلا يعتبر مميزا لذات عن أخرى لأنه مشترك ، فلا يصح التميز به ، لأننا لو قلنا : محمد موجود ، وعلى موجود ، والشجر موجود ، والكتاب موجود ، فلا شك أنها جميعا مشتركة فى الوجود ، وبالتالى فلا يصبح الوجود مميزا بينها .

من ثم نقل مثبتو الأحوال القول الى الوجوب ، مع أن المراد عند هم من لفظ الوجود الوارد فى محصل الرازى وأربعينه ، هو الموجودية المميزة ، وهى لاتكون مميزة الا اذا قيدت بكونها واجبة ، وعليه فيكون المميز هو الموجودية المقيدة بالواجبة ، من ثم يرجع التمييز بالحقيقة الى القيد المذكور بكونها الوجود الواجب ، وبهذا تندفع المنافاة بين الكلاميين ، وينقطع الاعتراض ، ويزول الاشكال .

لنا فى اثبات المذهب الحق أنه تعالى ، لو شاركه غيره فى الذات والحقيقة خالفه بالتعين ضرورة الاثنينية ، فان المتشاركين فى تمام الماهية لابد أن يتخالفا بتعين وتشخص ، حتى تمتاز به هويتهما ويتعددا ولا شك أن ما به الاشتراك غير ما به الامتياز ، فيلزم التركيب فى هوية كل منهما ، وهو ينافى الوجوب الذاتى ، كما تقدم *

---

* بعد أن عرض الرأيين ، وقف الشيخ عند اثبات المذهب الذى يراه حقا فى المسألة ، ولكن تبدو فى عبارته لهجة الموافقة لنفاة الأحوال ، ومن ثم تراه قد اتجه الى ابطال رأى المثبتة مباشرة ، رغم دعواه أنه يثبت المذهب الحق ، ويبدو أنه المذهب الذى ارتضاه فاعتبره حقا ، ونحن لاننازعه فيما رآه وهذا مجمل قوله :

افترض أننا رضينا المشاركة فى الذات والحقيقة ، لكن لو أن الله تعالى شاركه غيره فى الذات والحقيقة ، كما أدعى مثبتة الأحوال وهم الفريق الثانى — لوقعت المخالفة فى التعيين ضرورة الاثنينية ، على معنى لو أن ذات البارى وذات غيره اشتركا فى الذات والحقيقة ، فلابد من مميز حتى نعرف أن هذه ذات الله ، وتلك ذات غيره ، ومن ثم فلابد من وقوع الاثنينية والتعيين الملازم لها ، أما لماذا ؟

فلأن المتشاركين فى تمام الماهية ، كمحمد ، واحمد مثلا ، فانهما لابد أن يتخالفا بتعيين وتشخص حقا — احمد حيوان ناطق وهو تمام ماهيته ، ومحمد مثله ، لكن أحدهما أول ، وثانيهما ثان . أحدهما طويل وثانيهما غيره ، أحدهما فيلسوف وثانيهما نحوى ، ومن ثم نستطيع القول : محمد الفيلسوف ، واحمد النحوى مثلا .

حتى تمتاز هوية كل واحد منهما عن هوية الآخر ، ويتعددا لأنهما ايضا نسخة واحدة ، فاذا نقلنا هذا المعنى الى ما نحن فيه قلنـــا : ان ذات البارى تختلف عن ذات غيرها امتيازا بما به الهوية والتعدد ، بحيث نقول : هذه ذات البارى ، وتلك ذات غيره مثلا .

ولاشك أن ما به الاشتراك فى الذات والحقيقة ، غير مابه الامتياز فى الهوية والتعدد ، ومن ثم يلزم التركيب فى هوية كل منهما ، ذات البارى وذات غيره ، ولاشك أن التركيب فى الهوية ان صح فى الممكنات والواجب بغيره فلايصح فى الوجوب الذاتى كما تقدم من أن الوجوب الذاتى لاتركيب فيه ولاكثرة ، والا لزم الاحتياج .

وبهذا يكون الرد قد تم على القائلين بالمشاركة فى الـــــذات والحقيقة ، من مثبتة الأحوال ، ونظرا لأن سياق الرد كان فيه الجدل بينا ، فقد وجدنا الآخرين يحتجون بأكثر من جهة محاولين اثبات أن الذات الالهية تشاركها غيرها فى الذاتية والحقيقة ، وتمتاز ذات البارى جل علاه بالوجوب والحياة والعلم التام والقدرة التامة ، والالهية علـــى ما سلف ذكره .

احتجوا : على كون الذات مشتركة بين الواجب وغيره بما مر فى اشتراك الوجود من الوجوه وتقريرها هنا : أن الذات تنقسم الى :

(١) الواجب .

(٢) الممكن .

ومورد القسمة مشترك بين أقسامه :

وأيضا : فنحن نجزم به ، أى بالذات ، مع التردد فى الخصوصيات من الواجب والجواهر ، والأعراض على قياس ما مر فى الوجود .

وأيضا : فقولنا : المعلوم ، أما ذات ، واما صفة ، حصر عقلى ، فلولا أن المفهوم من الذات شئ واحد ، لم يكن كذلك *

---

* احتج مثبتو الأحوال على ما أثبته الشيخ باحتجاج يحمل الكثير من الوجوه .

الوجه الأول : أن الذات تنقسم الى الواجب والممكن ، وهذا على سبيل الحصر العقلى قائم ، ولأن الذات هى مورد القسمة فلا شك أنها مشترك بين الذات الواجب ، والذات الممكن ، والمقصود ههنا مجرد اشتراك تفرضه طبيعة القسمة ، ولايستلزم هذا تركيب فى الذات الأقدس، لأنها واجبة الوجود بخلاف الذوات الأخرى الممكنة .

الوجه الثانى : نحن نجزم بالاشتراك فى الذات مع التردد فى الخصوصيات وهى ميدان تمتاز فيه كل ذات عن الأخرى بما يميزها من الواجب ، والجواهر ، والأعراض وهذا الاشتراك فى الذات لاينافيه الامتياز لأن : الواجب له ذات بصفاتها ، من كونها لاتوصف صفاتها بأنها أعراض ، وهذا التمايز يجعل الأمر مقبولا .

. . . .

الوجه الثالث : قولنا المعلوم ، أما ذات ، واما صفة أمر قائم فى النفس على سبيل الحصر العقلى ، وهل هناك معلوم ليس ذاتا وليس صفـــة ومن ثم فان المفهوم من الذات فى كل شىء واحد ، لم يكن كذلك ٠

بهذه الوجوه الثلاثة يكون مثبتو الأحوال قد دافعوا عن وجهـــة نظرهم ، بل وحاولوا اشباع المسألة ردودا ، لكن لم تسلم لهـــــم احتجاجاتهم والردود ، حتى أن المصنف انبرى للجواب على كل مـــا أثاروه ٠

والجواب : أن المشترك مفهوم الذات ، أعنى ما يصح أن يعلم ، ويخبر عنه ، أو ما يقوم بنفسه ، وأنه أى مفهوم الذات على الوجهين أمر عارض للذوات المخصوصة ، المخالفة الحقائق ، على مآل قولهم : ان الأشياء متساوية فى تمام الماهية مع اختلافها فى اللوازم ، وهو غير معقول ، ومآل قولنا : الى عكس ذلك ، وهو ممكن .

وهذا الغلط منشأه عدم الفرق بين مفهوم الموضوع الذى يسمى عنوان الموضوع ، وبين ما صدق عليه هذا المفهوم : أعنى الذى يسمى ذات — الموضوع ، وقد ثبت فى غير هذا الفن ، أن العنوان قد يكون :

أ — عين حقيقة الذات .

ب — وقد يكون جزءها .

جـ — وقد يكون عارضا لها .

فمن أين يثبت التماثل ، والاتحاد فى الحقيقة بمجرد اشتراك العنوان ؟ وهذه المغالطة منشأ لكثير من الشبه ، فى مواضع عديدة ، فاذا انتبهت له ، أى لهذا المنشأ ، ووقفت على حاله ، وكنت ذا قلب شيحان ، أى يقظان غيور على حرمه التى هى بنات فكره ، انجلت عليك تلك الشبه ، وقدرت على أن تغالط غيرك ، وأمنت من أن تغالط أنت* .

---

* هذا الجواب الذى قدمه الامام الايجى وشارحه على احتجاجات مثبتى الأحوال يقوم على عدة أمور :

الأمر الأول : أن هناك خطأ وقع فيه المثبتون للمماثلة ، هذا الخطأ ناشىء عن عدم تفرقتهم بين عنوان الموضوع ، وبين ما صدق عليه هذا

---

(١) عنوان الموضوع هو المفهوم .

. . . .

الموضوع(١) ، أما كيف ؟ فهو أن مفهوم الذات مشترك ، ويعرّف بأنه ما يصح أن يعلم ، ويخبر عنه ، أو مايقوم مقامه بنفسه ، هذا عن مفهوم الذات الذى يقع فيه الاشتراك ، وأنه ينحصر بين وجهين هما : أنه يصح أن يعلم ويخبر عنه ، الثانى : أنه ما يقوم بنفسه .

ومفهوم الذات على أى وجه من الوجهين السالفين أمر عارض للذوات المخصوصة ، وليس ذاتيا لها ، على أساس أنها أمور متخالفة فى الحقيقة وان اشتركت فى المفهوم ، ومثبتة الأحوال ، أصحاب تماثل الذات الالهية من الذوات الأخرى وتمايزها بالوجوه الخمسة التى سلف ذكرها - يقولون : ان الأشياء متساوية فى تمام الماهية مع اختلافها فى اللوازم وهو غير معقول ، بينما الشيخ يذهب الى أن الأشياء المتساوية فى الماهية متساوية فى اللوازم وهو أمر ممكن .

وعلل هذا الخطأ بأن منشأه عدم فهم الفرق بين مفهوم الموضوع ، الذى هو عنوان الموضوع وبين ما صدق عليه هذا المفهوم ، يعنى الذى يسمى ذات الموضوع .

<u>الأمر الثانى</u> : اشتراك العنوان لايعنى التماثل والاتحاد فى الحقيقة أما كيف ؟ فلأن العنوان قد يكون :

١ - عين حقيقة الذات .

٢ - جزء حقيقة الذات .

٣ - عارضا لحقيقة الذات .

---


(١) الماصدق هم الأفراد الذين يصدق عليهم المفهوم .

وبالتالى فلا يثبت التماثل حتى نقول أن الذات الالهية تماثل غيرها من الذوات ، لأن كل ما يمكن التسليم الجدلى به هو اشتراك العنوان ، واشتراك العنوان لايثبت التماثل والاتحاد فى الحقيقة فثبت أنه لاتماثل .

الأمر الثالث : اشتباه العارض بالمعروض

العارض هو مفهوم الموضوع ، والمعروض هو ما صدقاته ، ولما لم يمكن فهم حقيقة كل منهما على حدة فقد وقع الخلط والخطأ ، بل ان الكثيرين الذين لايفرقون بين المفهوم والماصدق يقعون فى أخطاء كثيرة ، وشبه عديدة ناشئة عن عدم التماس التفرقة فضلا عن ممارستها .

ولذلك قدم الشيخ الايجى والجرجانى نصيحة لكل طالب علم ومعرفة هو الانتباه لمنشأ الخطأ فى كل الشبه ويعنون به عدم التفرقة بين المفهوم والماصدق ، بل أنهما يدفعان طالب العلم الى الوقوف على حاله ، على أن يكون طالب العلم ذكيا فطنا غير غفل أو نائم ، وبالتالى فستنجلى أمامه كل الشبه ، ويستطيع أن يغالط غيره ، وفى نفس الوقت لايستطيع أحد ان يغالطه .


Bibliotheca Alexandrina
1132474